

اثنتا عشرة امرأة

يوسف السباعي



النشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

مقدمة

لشد ما يدهشنى ٠٠ هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أعداء المرأة ٠ والذين يحاولون أن يصفوها بصفات الشر والسوء ٠ ولست أحاول بقولى هذا أن أدافع عن المرأة ٠ فانه يدهشنى أيضا أكثر من هؤلاء ٠ أولئك الذين ينصبون أنفسهم للدفاع عن المرأة ، ويحاولون تبرئتها من كل شر وسوء ٠

يدهشنى من هؤلاء وهؤلاء ، محاولتهم جمع النساء فى صفة من الصفات ٠٠ سواء كانت حميدة أو شريرة ٠٠ فلست أرى هناك صفة واحدة نستطيع أن نشرك فيها النساء ٠٠٠ فهن أنواع متعددة وأصناف متباينة منهن الطيب ومنهن الخبيث ، وفيهن الحسن وفيهن القبيح ٠ وفيهن وفيهن ٠٠ من كن ما يمكن أن يخطر على بال إنسان ، ولست أظن أن هناك ما نستطيع أن نجمعهن به سوى أنهن إناث كغيرهن من إناث الحيوانات والطيور والحشرات ٠ أما أن نقول أن المرأة ملاك رحيم ٠٠ أو أن نقول انها شيطان رجيم ٠ فهذا هو السخف بعينه ٠ بل أن مجرد وصفنا إياها بأنها « الجنس اللطيف » ٠٠ وصف غير مسديد ٠٠ أو هو من قبيل المبالغة أو المجاملة ٠٠ فانى أعرف نساء ٠٠ لو قلت عن أحدهن انها من « الجنس اللطيف » لما كان قولى الا سخريه وتهكما ٠٠ أو كان من قبيل متاداة الشئ بضده ٠٠ كما نقول على الزفت « بياض » ٠ ولقد حاولت فى كتابى هذا أن أكتب عن المرأة بمختلف أنواعها ،

وأن أعرض بعض صورها ٠٠ مستعينا فى ذلك بطريقة القصة ، وهى كما أعتقد طريقة فى الكتابة مستساغة ، فليس أسهل على القارئ من تناول القصة والاقبال عليها ٠٠ فالقصة أشبه ما تكون ببرشامة يستطيع أن يضع فيها الكاتب أفكاره وآراءه ، ويسهل لقارئه بواسطتها ابتلاعها ، دون أن يحس منها ضيقا ولا مرارة ٠ كما أن القصة لا تزيد عن حدوده قد خلت من الأفكار لن يكون لها تأثير فى نفس القارئ أكثر من تأثير برشامة فارغة ٠

وعندما جلست لأكتب مقدمة الكتاب حاولت أن أحدد قيمة المرأة فى حياتنا فوجدتها أشبه بالوقود الذى يحرك الرجل ، والذى يدفعه الى الحركة والى الحياة ٠٠ والنساء يختلفن كما يختلف الوقود ٠٠ فأنواع الوقود التى تحرك الآلات تختلف فى قدرتها وفى نوعها ٠٠ فهى تختلف بين بترول وفحم وخشب وبنزين أحمر وبنزين أبيض وزيت وسخ ، وكذلك النساء يتفاوتن فى أنواعهن وفى تأثيرهن ، وقدرتهن على تحريك الآلات الأدمية ٠٠ وكما أن الوقود قد ينتج عنه انفجار الآلات أو احتراقها ٠٠ ف كذلك النساء قد يكون تأثيرهن الحرق أو التحطيم ٠

وعلى ذلك ، فلا أظن أن الحياة يمكن أن تصبح حياة ٠٠ وأن الرجل يمكنه أن يكون لديه أمل أو مطمح ٠٠ لو خلت الدنيا من النساء ٠٠ وليس هناك من ينكر أنه ما من مطمح للرجل فى هذه الحياة ، الا كانت الرغبة الدافعة اليه ٠٠ هى ارضاء المرأة ٠٠ مهما حاول الرجل انكار ذلك ٠

وقد كتبت ما كتبت عن النساء ، وحاولت تشريحهن وتحليلهن ، ولقد يبدو من كتابتى عنهن أننى قد فهمتهن وألمت بخفاياهن ، وأننى قد درستهن دراسة تامة ٠٠ فعرفت المرأة الغيرى ، والمرأة الضالة ، والمرأة الخاسرة ، والمرأة الثكلى ٠٠ أجل قد يبدو من كتابتى عنهن

أننى قد أصبحت خبيراً بأمورهن وقد يكون هذا هو ما دفع بعض
القراء الى أن يعرضوا على مشاكلهم ويطلبوا منى النصيح
والعون ..

ولكنى مع كل ذلك .. ورغم كل ما كتبت لا أستطيع الا أن أعترف
أننى عاجز أمامهن ، وأنى ما استطعت فهمهن بعد ، وأنى مازلت
حيالهن كطفل غرير . فما وجهت الى نظرة من عين ساحرة الا تركتني
اتخبط ، وما مست يدي يد ناعمة الا جعلتني أرتجف ، وما خلوت
بوجه فاتن الا وجدتني كصبيبة المدارس .. بى شوق الى أن احب
وأن احب ، ويتملكنى الخجل من نفسى ، ولا أملك الا أن أوجه اللوم
الى قلبى الذى لا أظن الا أن الشاعر قد عناه بقوله :

قلبي الى ما ضرني ساعى

يكثر أحزاني وأوجاعي

كيف احتراسى من عدوى اذا

كان عدوى بين أضلاعى

ذلك القلب الخافق بين الضلوع .. المترنح فى الحنايا ..

فأقول له :

« آه لو خلا منك الصدر .. لاسترحمت من طمعك ومن كهفتك ،

وللكت زمام نفسى وأضحى بيدي الأمر .. متى تهدأ وتستقر ؟ .

متى تطفأ غلتك ويشبع نهمك ؟ . متى تشيخ ومتى يصيبك الوهن

فلا تعود تهفو كلما مر بك ثغر باسم أو عين ساحرة ؟ متى ..

متى .. لقد كللت منك وما كللت أنت ، »

ويخيل الى أنى أسمع بين الدقات والخفقات :

« لن تطفأ غلتى حتى يكف نبضى ، واكف عن الحياة » .

يوسف السباعي

امراة صابرة

انطلق بنا صاحبي بعريته فى شارع قواد متجها الى الزمالك .
وكانت الساعة التاسعة مساء ، وقد خرجنا من احدى دور السينما ،
ودهشت من صاحبي وخيل الى أن ذهنه قد شرد به فأخطأ الطريق ،
اذ كان علينا أن نعود ادراجنا ، بعد ذلك ، الى مصر الجديدة ،
وصحت به متسائلا :

– الى أين ؟

– الى أنجه هانم .

– وعن تكون أنجه هانم ؟

– سيدة تركية لطيفة ستعجبك كثيرا . . .

– وقيم ذهابنا اليها ؟ !

– لنأكل عاشورة . . فقد دعتنى لتناولها ، ولا اظنها الا مريحة

بوجودك معى .

ووقفت العربية . . ودلفنا الى الدار . . دار دل مظهرها على

مدى ما يستمتع به اهلها من ثراء وسعة من العيش . . ولقيت المرأة

. . بين الشباب والكهولة . . لم تستطع السنون أن تحو رونق

شبابها أو تذبل نضرتة .. وأحسست بنفسها رقة طبيعية غير مصطنعة ، وبحديثها عذوبة غير متكلفة .

وعندما غادرنا الدار علمت من صاحبي أن المرأة أرملة طيب معروف لم يطل العهد على وفاته ، وأنها تعيش في الدار وحيدة مع طفلتها .. وسمعت من صاحبي ثناء عطرا عليها ، ومديحا في خلقها وفي سمو نفسها .

وتكررت زيارتي للسيدة مع صاحبي بضع مرات .. دون أن أعرف بالضبط سبب صلته بها .. أو أحدد مدى علاقته معها .. فقد كنت أشك كثيرا في دعواه أنه كان صديق زوجها .. إذ لم أسمع بهذه الصداقة من قبل .. حتى فوجئت ذات يوم بمعرفتي خبر زواجه بها .. أقول أنني فوجئت لأنه لم يخطر لي ببال قط أن صاحبي هذا سيتزوج لأنى أعرفه مبغضا للزواج معرضا عنه ، حتى لقد جاوزت به السن مرحلة الشباب دون أن يفكر فيه ، بل كان يبدو لي أنه قد عزم على أن يقضى ما تبقى من عمره « أعزب » ، وأنه قد صعم على ألا يتيح الفرصة لامرأة ، أيا كانت ، أن تفسد عليه حياته .

وفوجئت أيضا .. لأنى قد رأيت الرجل بعد طول صيام ، أظفر .. كما يقولون « على بصلة » .. أو على الأقل هذا ما خيل إلى .. فمهما قيل عن كرم خلقها ، ورقة نفسها ، فهي على أي حال أرملة ذات أبناء .. قد ولى الشباب عنها أو كاد ، كذلك البصلة قد تكون خضراء ناضرة أو حمراء طليانية ممثلة ، ولكنها لن تزيد عن أن تكون بصلة .

كذلك أدهشني من جانب البصلة ، أعنى المرأة ، بعد كل ما تخيلته فيها من اتزان وعقل وخلق .. أن تقدم على الزواج ولم يعض عام على وفاة زوجها .

وهكذا بدأ لى الزواج من الجانبين شيئاً يبعث على الحيرة .
وحاولت أن أنلمس لهما عذرا ، واخذت أفكر ٠٠ فانتهى بى التفكير الى
تعليل واحد لست أستطيع أن أجزم بمداه من الصحة ٠٠ ولكن
لا أخال شخصا قد عرف بنبا الزواج الا انتهى الى مثل هذا التعليل ،
وهو أن الرجل قد أغراه ثراء المرأة ٠٠ وأما المرأة فقد فتنها الرجل
٠٠ فهو على رغم ما قلته من تجاوزه مرحلة الشباب ، ما زال يحتفظ
بوسامته وقدرته على اجتذاب النساء .

وتعودت بعد ذلك أن أزور صاحبى فى داره الجديدة ٠٠ أعنى
دار الأرملة الثرية بالزمالك . وفى ذات يوم ، ذهبت لزيارته فلم
أجده ٠٠ ودعتنى السيدة الى البقاء لانتظاره فجلست أجاذبها
أطراف الحديث .

ولست أدري كيف ساقنا الحديث الى ذكر زوجها السابق ٠٠
ولكنى وجدت السيدة تطرق برأسها برهة ، ثم ترفع وجهها الى
متسائلة :

— لا شك أن زواجى يمثل هذه السرعة قد أثار دهشك !
وشعرت بحرج شديد ، ولم أدربم أجيب . ان قلت أنه قد أثاره
٠٠ كان قولى بمثابة اتهام لها بارتكاب خطأ أثار الدهشة ٠٠ وان
قلت انه لم يثر دهشى فكأننى أراها امرأة سوء لا يدهش المرء أن
يراهما ترتكب خطأ .

ولكن السيدة لم تنتظر جوابى بل أردفت قائلة :
— أنا أعلم أنه شيء يثير الدهش ٠٠ فقد كان يجب على أن أصبر
وانتظر ٠٠ على الأقل حتى يتم العام . ولكن دعنى أقص عليك قصة
مسلية ٠٠ أغلب ظنى أنها ستزيل كثيرا من دهشك :

— كان ذلك منذ زمن بعيد ، وكنت أعيش فى أنقره مع أبى وهو
أحد الأطباء الباطنيين وكنت قد بلغت السادسة عشرة عندما بدأ

الضوء يخبو من عيني أمى شتيًا فشتيًا ، حتى انتهى بها الأمر بعد بضعة شهور الى فقد بصرها ، فأصابنا جزع شديد ، فقد أحسنا مبلغ ما كانت تقاسيه من ألم نفساني شديد .

وفى ذات يوم اقبل أبى وقد تهلل وجهه وشع من عينيه بريق أمل . . . وأنبأنا أن أعظم أطباء العيون فى أوربا يمر الآن بأنقره . . . وهو يظن أنه قد يستطيع أن يعبد الى أمى بصرها .

وفى اليوم التالى حضر أبى ومعه مساعده ، وهو زميل أصغر منه كان يعتبر صديق العائلة . . . ومعهما رجل ذو لحية صغيرة مدببة لم أشك فى أنه الطبيب الأوروبى الشهير . وعندما انتهى من فحصه عن أمى سمعته يقول : « هناك بعض الأمل . . . اننا نستطيع أن نرد اليها بصرها ، ولكنها قد لا تستطيع الاحتفاظ به . . . على أى حال . . . لنجرب . . . فلن يكون هناك أسوأ مما هى عليه الآن » . وأجريت العملية . . . فكانت النتيجة باهرة ، أكثر مما كان يخطر لنا على بال . . . فقد أصبحت تستطيع الابصار أحسن منها فى أى قوت مضى .

وكان الوقت ربيعاً ، والطبيعة قد اكتست أبهى حللها ، كأنها قد رغبت ألا يقع بصر أمى الا على كل ما هو نضر وجميل ، وانى لأذكرها فى ذلك الوقت ، وقد وقفت بجانبى فى احدى الشرفات المطلة على الحديقة بجسدها الفارع المشوق بلا ترهل ولا استرخاء ، ورأسها الصغير الجميل ، ولامحها الساكنة الهادئة ، وقد سبحت بعينيها فى الأفق عندما اختفت الشمس وخلقت للسماء حمرة الشفق . . . فصبغ الكون بلون أرجوانى جميل ، وبدأت الأرض منمقة مزركشة ، قد كستها الزهور المتفتحة ، وحمل الينا النسيم عبير زهر البرتقال فملأت أمى منه رنتيها فى شهيق طويل كأنما تعب منه عبا . . . وسمعتها

تهمس كأنها تحدث نفسها : « ليحدث بعد ذلك ما يحدث ما دمت قد أبصرت هذا .. انى سأختزن فى نفسى من هذا الجمال ما يعيننى على المضى فى حياتى .. حتى ولو لم ابصر بعد ذلك » .

وفى الأشهر القلائل التى أعقبت ذلك بدا لى أنها تحاول حقا ، أن تختزن فى نفسها ذكريات جميلة لكل ما ترى .. لقد كانت لا تبصر المراثيات مجرد ابصار عابر . بل كانت تبسود وكأنها تحاول أن تستذكرها ، كما يستذكر تلميذ درسه لكى يعيه رأسه ، لقد كانت تحاول أن تبصر ، لا بعينها فقط ، بل برأسها وقلبها .
ولقد كنت أجدها أحيانا تنادىنى فجأة .. ثم تلف ذراعيها حول كتفى وتشملنى بنظرات نهمة ، وتحدث نفسها هامسة :

– شعر ذهبى .. ووجه أبيض دقيق التقاطيع ، وعينان خضراوان ممتلئتان بالأحلام .

وكنت كثيرا ما ألحها تشخص فى أبى بنفس النظرات وقد استلقى فى مقعده مستغرقا فى القراءة .. فكنت أذكر قولها : انها ستختزن من المراثيات ما يعينها على الحياة فيما لو فقدت بصرها مرة أخرى .
ولم تمض بضعة شهور حتى خبا ضوء عينها مرة ثانية ، وفى هذه المرة لم يكن هناك أمل فى برء ، أو رجاء فى شفاء ، فقد ذهب بصرها الى غير عودة .. وألت بها ظلمة دامسة لا يلوح لها فى حلكتها قبس من ضياء .. وكانت هى تدرك الحقيقة ، ومع ذلك فقد بدا لى أنها قانعة راضية ، وأنها كانت قد أخذت أهبتها لذلك ..
أو كما قالت .. اختزنت لنفسها من الذكريات ما يجعلها فى غير حاجة الى متعة البصر .. لقد وعت كل ما تحب أن تراه فى ذهنها وفى قلبها .. ان الظلمة لم تقايتها هذه المرة ، ولم تأخذها على غرة .. حتى لقد سارت حياتها ، كما كانت من قبل ، دون أقل تغيير

أو تبديل . فما انقطعت من زيارتها للأصدقاء ، ومن خروجها للنزهة والتجوال فى الأسواق . . .

وكنت أصطحبها أينما سارت ، وقد أسندت يدها بخفة على ذراعى وسارت فى ثقة واطمئنان ، وكان أحب الأشياء إليها أن نخرج سويا للنزهة . . وأن أصف لها كل ما أراه وصفا دقيقا . . وتعودت أنا ذلك الأمر حتى أجده كل الاجادة ، وأصبحت اللفاظ تنساب من شفتى فى سهولة كأنى أقرأ صفحات كتاب ، وكانت كثيرا ما تحدثنى ضاحكة :

– لقد أصبحت مدهشة . . حتى لكأنى أرى من حديثك كل ما ترين ، ولكنى لا أود أن أعتمد عليك كل الاعتماد ، لأنك ستغادريننى فى يوم ما ، وتذهبين فى طريقك . أجل . لا بد لى من خادمة تقودنى من الآن .

– يا أماه ! انى لن أفارقك أبدا . . حتى نهاية العمر .

وفى ذات مرة عدنا الى الدار ، فوجدت أبى ومساعدته قد جلسا فى الردهة ، وعندما ذهبت أمتى الى حجرتها أخبرنى أبى أنه قد أوصى على خادمة تتولى عنى مهمتى . . فقلت له فى دهشة : « اننى لا أشكو شيئا ، وانى لم أطلب أن يتولى عنى أحد أمر أمتى » . فقال أبى : « ان هذا الأمر لا بد منه ، ان عاجلا أو آجلا ، فلا بد أن يأتى يوم تفارقينها فيه » .

فأجبت : « ان ذلك اليوم لن يأتى ما دام أجسدا على قيد الحياة !! » .

وسمعت الشاب يتمتم قائلا :

– لا أظنك تتخيلين أنك ستبقيين حياتك هكذا ، مجرد ظل . . لأنك لا شك ستكونين لحياتك الخاصة ، ولزوجك وأولادك . ونفدت هذه الكلمات الى نفسى كأنها السهام . فما من أحد فى

هذه الحياة يرغب أن يكون مجرد ظل لآخر ، وما من شك في أن آمالا تراود نفسى فتصور لها حياة مستقبلية مقعمة بالهناءة وبيتنا جميلا وزوجا وأولادا ، ولكننى كنت لا أدع نفسى تنساب مع هذه الآمال ، فقد كنت أعتقد أن هذه الدنيا لا بد أن يضحى فيها البعض لكى يسعد البعض الآخر ، وكنت أرى القدر قد جعلنى من ذلك البعض الذى يجب عليه أن يضحى ، فقبلت التضحية ، إذ كنت أحس أن أبى لا تستطيع الاستغناء عنى ، وأن أحدا لا يستطيع أن يقوم لها بما أقوم به ٠٠ لقد كان يجب على أن أعوض لها بصرها الذى فقدته ٠ ولم أشك فى أن أبى ومساعدته قد تحدثا عنى مليا ، وخيل الى أنى استطعت أن أخمن موضوع الحديث . وان كنت لم أستطع أن أعرف ما قيل بوجه التحديد ٠

لقد تحدثنا بلا شك عن مسألة زواجى ٠٠ فأغلب ظنى أن هذا هو ما أثار مسألة الخادمة ٠٠ ولكن كيف تحدثا ، وماذا قالوا ؟ لست أدري ، لقد كان مساعد أبى - كما قلت لك - صديق العائلة ، وكنت اعتبره أخا أكبر ، ولا شيء أكثر من هذا ، والواقع أنه كان رجلا هادئ الطبع ، كريم النفس ، جميل الخلق ، ذا مظهر محترم ٠٠ رجلا يستطيع المرء أن يركن اليه فى الشدة والضيق ، ولكنى مع ذلك لم تخطر على بالى فكرة زواجه ٠٠ إذ لم يكن هو الزوج الذى تصوره لى الأحلام ، والذى كنت فى قرارة نفسى أتلهف عليه ، لست أدري ٠٠ لم ؟ ولكن هذا هو ما كنت أحس به ٠

ولكن ما لى ولهذا الحديث ، وأنا التى فرض عليها القدر قبول التضحية ٠٠ ورسم لها الطريق الذى لا تستطيع أن تحيد عنه ، وخاصة بعد شهر من هذا الحديث ٠٠ عندما أصابنى القدر بأول فاجعة حددت لى الطريق تحديدا واضحا ٠٠ فقد مات أبى ، وأصبحت وحيدة مع أمى !!

ومرت بى الأيام بعد ذلك ، وأكون كاذبة مدعية ان قلت انها لم تكن طويلة معة ، وأن ثورة مكبوتة لم تكن تعتمل فى صدرى وأنا فى مثل هذه السن الثائرة الفائرة التى تحس فيها الفتاة بنهم الى الحياة ، والتى لم أكن أفعل فيها شيئا سوى ملازمة أمى والحديث اليها ، وسوى بعض نزعات يصحبنى فيها مساعد أبى الذى كان شديد العطف على .

وفى مرة من هذه المرات ، سألنى الزواج ، قائلا بصراحته وهدوئه اللذين عهدتهما فيه . . محاولا أن يواجه فى قوله كل الحقائق تى تحيط بنا :

— أنا أعلم أننى قد أكبرك كثيرا ، وأعلم أيضا أنك لا تحبيننى . . أعنى ذلك الحب المشتعل الذى يتأجج فى الصدور ، ولكننى أعتقد أننا قد نستطيع أن نسير جنبا الى جنب ، وأن يعاون كل منا الآخر فى حياته . . ويمكن لأمك أن تعيش معنا . . لقد أحبيتك دائما . . وتمنيت فى كل لحظة أن نكون شريكين فى حياة واحدة .

وسادت بيتنا فترة صمت طويلة ، عصفت خلالها برأسى الأفكار بشدة وعنف ، ثم أجبت فى النهاية بنفس الصراحة :

— انى لا أكن لك سوى الحب والتقدير . . ولكنى لا أرغب فى الزواج ، أو على الأقل ليست بى رغبة فيه الآن .

هل حقا لم أكن أرغب فى الزواج ؟ ! أو أن الرجل نفسه لم يكن الرجل الذى صورته لى الأحلام ، والذى كان يتلطف عليه القلب ؟ . لم أدر الحقيقة وقتذاك . . وقتذاك فقط ، لأننى بعد بضعة أيام ، بدت لى جلية واضحة ، عندما صادفت رجل أحلامى نفسه ، بدمه ولحمه ، فعرفت أن المسألة لم تكن مسألة رغبة عن الزواج . . بل كانت رغبة عن الشخص نفسه .

لقيته فى احدى الحفلات ، فتى مصرياً بالسفارة المصرية • ولم يستغرق الأمر منى شيئاً من الوقت أو الجهد ، لأتبين فيه أنه الفتى الذى انتظره ، فقد وفر على القلب ذلك الجهد والوقت ، عندما أحسست به قد خفق بين الضلوع •• وهفا وترنج كالثلمل •• لقد كان القلب أدرى وأعلم •

وأخذت الصلة تزداد بيننا ، ودعوته لزيارتنا فى دارنا ، كما دعانا لزيارته •• وهنا بدأت أحس بثقل القيد الذى كنت موثقة به ، وبدأت أشعر بلهفتى على شىء من الوقت يكون ملكاً لى ، وعلى شىء من الحرية تمكنتى من التصرف كما أشاء ، حتى كان ذات يوم أقبل علينا مساعد أبى ومعه فتاة صغيرة رقيقة قال انها فتاة يتيمة لا عائل لها ، وأنه ظن أنها قد تساعدنا فى خدمة أمى •

ولا تسلم عن فرحتى الشديدة بالفتاة ، فقد أحسست أنها ستستطيع أن تهيب لى ذلك الوقت والتحرر اللذين كنت أتلهف عليهما •• وان كنت لم أحاول أن أظهر فرحتى حتى لا أولم أمى •• وحتى لا يداخلها شعور بأننى قد أصبحت أضيق بها •

وكانت الفتاة ذكية فطنة •• فسرعان ما عرفت بيوت الأصدقاء والأماكن التى كنت أرتادها مع أمى ، وأخذت تقوم عنى يمرافقتها فى كثير من الأوقات •• وبدأت أحس أنى قد أصبحت - الى حد ما - حرة طليقة •• وأنى لم أعد بعد ظلاً ، بل أصبحت أصلاً أتصرف فى نفسى وفى أوقاتى • وكنت فى ذلك الوقت فى أشد الحاجة لذلك حتى أستطيع أن ألقى صاحبى •

ولست أظننى فى حاجة الى أن أصف لك تلك الفترة من العمر •• الفترة التى تصاب فيها الفتاة بنشوة الحب الحقيقى •• والتى تحس فيها أنها لا تملك من أمر نفسها شيئاً •• وأن زمامها قد افلتت من عقلها وأصبح طوعاً لقولها واحساسها •• وأنها قد أصبحت مقودة

بعاطفتها ومشاعرها • دون أن تجد في ذلك غرابة أو تحس غضاظة
• لأنها سكرى تترنح في روضة من رياض الحب فواحة غناء •

أجل لن أحاول أن أنكر لك التفاصيل - رغم أنني أجد في نكرها
لذة ممتعة - لأنها شيء يطول شرحه ولأنى لا أظن هناك امرء لم تمر
به تلك الفترة • • مهما اختلف مظهرها ، وتنوعت ظروفها • • ولكنى
أستطيع أن أخصها لك في بضع كلمات هي أن تلك الفترة لم تكن
من دنيانا في شيء ، أو أنها مرت في غفلة من الزمن ، أو هي حلم
من أحلام الدجى •

وهكذا دأبت أرشف من كأس الهوى ، أو على الأصح ، أعب منها
عبا ، حتى كان ذات يوم أنبأنى الفتى وقد أسندت برأسى الى صدره
أنه سيعود الى مصر • • فأحسست بقلبي يغوص بين جنبى • • وبدا
على وجوم شديد • • ولكنه همس في أذنى :

- سنعود سويا الى مصر • • مصر الجميلة العزيرة • • أوكد
لك أنك ستحبينها كما أحببتنى ، ستحبين نيلها العذب القوى يمتد
في بساطة وهدوء • • ينساب بين بطاوحها في ثقة واعتداد • • كأنه
السيد الكريم المحبوب • • وحقوقها المترامية الخضراء تهز أطرافها
نسعات خفيفة وتسمع منها حفيفا كأنه تسبيح بحمد الله والنيل
والأرض الخصبة الطيبة ، ستحبين أهلها الكرام الطيبين ، ستحبينها
كما أحبها أنا • • لأن كل ما فيها يحب •

وفعلت كلماته فعل السحر في نفسى ، فلقد كنت عاشقة ،
والعاشق يؤمن بكلام صاحبه ، كما يؤمن بكلام الله • • وأحسست
أنى قد أحببت مصر فعلا قبل أن أراها • • وتمنيت لو وجدت نفسى
بعد غمضة عين بجوار صاحبى على شاطئ النيل •

وعدت الى الدار بعد ذلك ، وتجنببت لقاء أمى ، فقد خشيت أن
تقرأ ما بنفسى ، ولكن تجنبى اياها لم يفد شيئا ، فقد كان يخيّل الى
أنها تعرف كل شيء . وأنها تحس أننى قد بت بعناى عنها ، وأننى
طرحتها جانبا وسرت فى طريقى .

وتعود صاحبى زيارتنا فى الدار . . ورغم ما كانت تلقاه به أمى
من حفاوة ظاهرة . . فأننى كنت أحس أنها لا ترتاح اليه كثيرا ، بل
أكثر من هذا كانت تبفضه . . فأغلب ظنى أنها كانت ترى فيه عدوا
يوشك أن ينتزع منها شخصا حبيبا ان لم يكن قد انتزعه فعلا .

وأصيبت أمى بعد ذلك بمرض سيب لى جزعا شديدا . . وحضر
زميل أبى لعيادتها ، ولم يكن مرضها شيئا مفاجئا . فقد بدا عليها
الهبال ، وأصابها أرق قبل ذلك ببضعة أسابيع ، وبعد أن فحصها
الرجل انفردي فى احدى الحجرات ، ثم قال فى هدوء :

— يجب علينا أن نواجه الحقائق ، ان أمك تعاني أزمة نفسية
شديدة .

— أزمة نفسية شديدة ؟ . . ماذا تعنى . . ولم ؟ ! .

— لا داعى للتجاهل ، دعينا نتكلم بصراحة أكثر ، ان أمك تعلم
كما يعلم كل انسان عن هذا الحب الذى بينك وبين الفتى المصرى .
وتصاعدت الدماء الى وجهى ، وحاولت أن أقاطعه ، ولكنه
اسكتنى بأشارة من يده . . وأردف بصوت ملؤه الزقة :

— انى أحدثك كصديق ، ان الأمر نتيجة طبيعية لكل ما حدث . .
لقد كنت ظللا لها خمس سنوات طواز ، فلا أظنك تتخيلين أنها ستتنازل
عك بيسر . . انها تحاول دون أن تشعر أن تستعيد اهتمامك بها ،
انها تخشى أن ينزعك منها صاحبك ، وتخشى أيضا أن تسبب شقاءك ،
فهى بين الأمرين فى صراع نفسى عنيف ، قد يكون ذا خطورة عليها

ان لم نتدارك أمره ، وانى على استعداد لأن أقدم لمعاونتك كل ما تطلبين .

وسادت فترة صمت استغرقت خلالها فى تفكير عميق ، وبدأ لى أنتى فى غمرة الحب قد نسيت أمى المحبوبة ، وأنى قد أهملتها شر أهمال . . وأحسست بضعيرى يخزنى وخزا شديدا . . لقد أعمانى الحب وأضلنى الهوى ، فكنت أنانية الى أبعد حدود الأنانية ، وتذكرت ما كنت أحدث به نفسى عن التضحية ، فأجسست نحو نفسى بالازدراء . . ورأيتنى تافهة حمقاء ، كصادية اندفعت تعدو وراء أول سراب لاح لها . . وتواردت الأفكار على رأسى فى سرعة البرق . . فوجدت أنه من العبث أن أمل فى زواج صاحبى . . لأنه يستحيل على أن أترك أمى وأسافر معه الى مصر ، ولا سيما بعد أن رأيت ما قد صارت عليه حالتها من السوء بعد أهمالى إياها . . فما أظننى قد أصبحت أنانية شريرة الى هذا الحد . . وكذلك كان من الحق أن أفكر فى أن تسافر معنا ، فأحمله عبء امرأة عمياء ، وخاصة انى أعلم تماما أن أحدهما لم يرتح الى الآخر قط . . إذ كلاهما يحس - غيرة من صاحبه . . ولم أكن أشك فى أن الحياة معهما سويا لن تكون سعيدة بحال من الأحوال .

وفى خلال هذه الثورة الذهنية التى عصفت برأسى بدا لى أن خير حل أضع به حدا لتلك المتاعب ، هو أن أتزوج هذا الرجل الواقف أمامى ، فما أظننى أطمع فى الحياة فيمن هو أجمل منه خلقا أو أطهر نفسا ، لقد كان رجلا طيب القلب . وأخيرا قطعت حبل الصمت بسؤاله فجأة :

- هل ما زلت على استعداد للزواج منى ؟

وذهل الرجل ، ولكنه أدرك بسرعة ما قادنى اليه تفكيرى ، فأجاب بهدوء :

– طبعاً ما زلت . ولكنى لا أريد أن أكون حائلاً بينك وبين من تحبين . لا أريد أن أكون دواءً مرا تحاولين به التخلص من آلام نفسك ، اننى لم أقصد أن أعاونك بهذه الطريقة ، وانى لا أريد أن أكون سكيناً تقطعين به حبل آمالك . لا . لا . دعينا من مسألة الزواج الآن ، فأنا أعرف أنك فى غمرة يأس .

ولكننى كنت قد صممت . وذهبت الى أمى لأعلنها بالأمر ، فبدا عليها فرح شديد .

ولست أجد داعياً لأن أصف لك الأيام القلائل التى مرت بعد ذلك حتى تم الزواج .

اتسمع يا سيدى ، عن ذلك الذى يسمونه « عاصب البطن » وهو شخص قد عصب بطنه حتى يحتل الجوع ، ويصبر على السغب ؟ لقد كنت وقتذاك « عاصبة القلب » لأنى عصبت قلبى حتى أحتمل جوع الحب ، وحتى أصبر على سغب القلب . وحتى لا أصاب بضعف وينفذ صبرى . فأعدو لأرتقى بين أحضان صاحبى وأشبع منه قلبى الجائع ونفسى الصادية .

أجل يا سيدى . لقد علمت نفسى كيف تكون امرأة صابرة . وقد تتهمنى ، يا سيدى ، بأنى لم أكن أحب صاحبى حباً حقيقياً ، والى استلعت الأقدام على مثل هذا الجنون ، أو قد تقول عنى اننى ذات ارادة خارقة ، ولكن الواقع اننى كنت أشبه بمرضى حقنوه بالمخدر قبل اجراء العملية ، وكما يقيق المريض من تأثير المخدر بعد انتهاء العملية فيحس بالآلام الجراح التى أحدثها مبضع الجراح ، بدأت أنا الأخرى أقيق لأحس فى قلبى جرحاً عميقاً .

وغادرت البلدة عقب أن تم الزواج . مع زوجى ووالدتى لنقضى فى الريف « شهر العسل » (يآله من اسم على غير مسمى) ، ولم أجاول أن أرى صاحبى قبل الرجوع ، اذ كنت فى غير حاجة لأن أزيد

الجرح عمقا ؛ وأى فائدة فى أن أراه بعد تلك الحماسة التى ارتكبتها ؟
وعاد هو إلى مصر ، بعد أن عرف بالأمر طبعاً ٠٠ وهكذا
افترقنا دون أن يرى أحد منا صاحبه ، ودون أن يودعه بكلمة ، اللهم
الا رسالة حملها الى البريد ، لا أدعى أننى وجدت فيها الشفاء ، فقد
كان الجرح أعمق من أن تضمده مجرد كلمات ، ولكننى مع ذلك
وجدت فى هذه الكلمات شيئاً من العزاء ، أتصبر به كلما أضناتنى
الشوق وعصف به الحنين ٠٠

★ ★ ★

وصمتت السيدة ، ثم رأيتها تنهض وتختفى فى إحدى الغرف
برهة ، ثم تعود ثانية وقد حملت فى يدها ورقة صفراء باهتة مطوية
بعناية ، ودفعت بها الى قائلة :

— هذه هى الرسالة ٠٠ هذا ما تركه لى صاحبى .
وفضضت الورقة فوجدت بها بضعة أسطر باهتة ، هى ما يلى :
« لا عتاب ولا حساب ٠٠ فانى لا أرى فى ذلك نفعا بعد أن انتهى
الأمر ٠ : انى أحاول دائما أن ألتمس لك العاذير ، لأنى أحبك
ولا أستطيع الكف عن حبك ، ويخيل الى — دون أن أعرف حقيقة
الأمر — أنك لست المخطئة لأنك لا يمكن أن تخطئى ٠٠ فانا أعرف
قلبك الجميل ونفسيك الصافية ٠٠ يا حبيبتى ٠٠ انى سأنتظر ،
لا تقولى ماذا ينتظر ؟ ولا تقولى أحقق ينتظر بلا أمل ، أو عاشق
يلقى الوعود جزافا ، فانى سأنتظر ٠٠ من يدري ؟ »
وانتهيت من قراءة الخطاب !! ثم وقع بصرى على الامضاء ٠٠
فأصابتنى دهشة شديدة ٠٠ فلقد وجدته بامضاء صاحبى ، وعقدت
الدهشة لسانى فلم أستطع الا أن أقول :
— أهو ؟
وهزت رأسها هزة خفيفة وأجابت :

— أجل ٠٠ هو ٠٠ !

ثم اتمت القصة فى كلمات قلائل ، وقالت :

— لقد مرت الأيام والأشهر والسنون ، وماتت أمى ٠٠ ثم

اضطرتنا الظروف الى المجئ الى مصر ، فاقمنا فى القاهرة ٠٠ ثم

مات زوجى ، والتقيت بصاحبى وصاحبك ٠٠ فوجدته ما زال ينتظر

٠٠ اترى يدهشك بعد ذلك أن أتزوجه قبل أن يتم عام على وفاة

زوجى ؟ !

اترانى بعد كل ما سمعت ٠٠ امرأة متعجلة ٠٠ أم امرأة

صابرة ؟ !

امراة خاسرة

ليس أعجب فى هذه الحياة من ذلك التناقض الذى تظهر به الأشياء اذا ما اختلفت وجهات النظر اليها ٠٠ فلو أننا اخترنا احدى الحقائق الثابتة أو احدى الحوادث العابرة التى تمر بنا ٠٠ وحاولنا أن نقارن بين المظهر الذى تبدو به لبضعة أشخاص متباينين ٠٠ لا صلة بينهم ولا شبه ٠٠ ولو حاولنا أن نزن وقعها فى نفوسهم لراعنا ذلك التناقض العجيب الذى يظهر به الشيء الواحد ولعلمنا أنه ما من شيء فى هذه الحياة له قيمة فى حد ذاته ، وانما قيمة هذه الأشياء كائنة فى قلوبنا وفى الطريقة التى تعكسها بها مرآة نفوسنا ٠

ولنضرب مثلاً ٠٠ جنازة فى طريق ٠٠ قد نمر بها فى عربة ونحن فى عجلة من أمرنا ٠٠ فيعطلنا ازبحام المشيعين لحظة أو لحظات ٠٠ فقطظهر السخط والتبرم ٠٠ ولا تزيد نظرتنا الى ذلك الذى يوشك أن يثوى فى جدته ٠٠ عن نظرتنا الى وسيلة تعطيل كقطار يمر بجسر لولبى أو جندى مرور فى تقاطع طرق ٠٠

أجل ٠٠ هذه هي الصورة التأفهة التى يبدو فيها ذلك الميت الذى قد يكون موته حدثا فى نفوس آخرين ، وقد يكون فى رحيله الى قبره — ذلك الرحيل الذى لم يسبب لنا أكثر من تعطيل دقيقة أو دقيقتين — قد خلف قلوبا موجعة وعيوننا دامعة ، ومع ذلك فما اظننا الا خيرا من سوانا بالنسبة لذلك الميت ٠٠ على الأقل خير من ذلك الحانوتى الذى لم ير فيه أكثر من صفقة رابحة اثلجت صدره وأفرحت قلبه ، وخير من الترابى وغيره من مقرئى القبور الذين لم يروا فيه أكثر من موسم شغل ٠

هذا هو مثل لتلك الحوادث العابرة التى تصادفنا كل يوم ، ومثل آخر ٠٠ هذه القصة التى سأسرد حوادثها والتى لم أر فيها فى أول الأمر الا قصوصة تأفهة لا تستحق أن تشغل من ذهن المرء الا بمقدار سماعها ، وبمقدار كلمة أو كلمتين يعلق بهما عليها ، ثم يجاوزها الى غيرها من اقصيص الحياة ٠

ثم رأيت القصة بعد ذلك من زاوية أخرى ٠٠ زاوية قريبة ٠٠ أبدت لى الكثير من التفاصيل والخفايا ، فراعنى ذلك التناقض بين ما كنت أرى وما رأيت ٠

القصة من الزاوية الأولى ، لا تزيد على خبرين نشرا متعاقبين ٠٠ تفصلهما بضعة أيام ٠٠ كلاهما لم يشغل من الصحيفة التى نشر بها الا بضعة أسطر مقتضبة يمر عليها المرء ببصره مروراً عابراً ، وكان الخبر الأول هو خبر زواج مطربة من رجل غير معروف ، والخبر الثانى هو وفاة هذا الرجل غير المعروف ، وقد أثار الخبر الأول فى نفسى بعض الدهش من أن تتزوج المرأة أخيراً بعد طول عهدهما بالوحدة ، وبعد أن تركت فرصا عديدة تفلت من يديها ، ولكننى لم أعلق على الخبر بأكثر من أنها قد تكون أحبت الرجل ، وقد يكون

الرجل أحب ثروتها الطائلة ٠٠ أما الخبر الآخر فلم أر فيه أكثر من نوع من سخرية القدر ، وما كنت أتوقع من القدر سوى السخرية .
ثم امحى من ذهني بعد ذلك كل شيء عن الرجل الراحل والمطربة الأرملة ، وجرفهما تيار النسيان الجارف القوي ، ونأى بهما عن الذاكرة ، حتى قادتني الظروف ذات يوم الى لقاء المرأة وكان اللقاء في بيتها الأنيق في شارع الهرم ٠٠ وقد أدهشني أن أجدها تتشبح بالسواد ، ولكنني تذكرت حينئذ ذلك الرجل الذي تزوجها ومات بعد بضعة أيام ، وعجبت أن تكون المرأة قد حفظت له عهد تلك الأيام القلائل التي لبثها معها .

وقدمت اليها على أنني « فلان » - كاتب قصة - واذكر أنني شعرت بشيء من الزهو عندما رأيته تضغط على يدي وتقول باسمه انها قرأت لى ، وجلست واياها في حديقة الدار بعد أن انصرف الزائرون ، ورأيت منها صفاء ذهن ، وحدة ذكاء ، وفي حديثها طلاوة ورقة .

ووجدتها تسألني بعد برهة :

- حدثني كيف تكتب قصصك ؟

- حوادث من الحياة ٠٠ أضيف عليها بعض التعميق والتحوير ، وأضفى عليها بعض التهويش ، ثم أحاول أن أجعل لها خاتمة بها شيء من الغرابة !

وضحكت المرأة لتلك الصراحة ثم قالت :

- ما رأيك فيمن يهب لك قصة ؟ هي - على حد قولك - حادثة من الحياة ، ولكنني أؤكد لك انها لا تحتاج منك الى ذلك التعميق والتحوير والتهويش ، ولن تحتاج الى أن تبتكر لها خاتمة عجيبة ٠٠ بل كل ما عليك هو أن تضعها كما هي ٠٠ بتفاصيلها وحذافيرها ٠٠ وأؤكد لك انها ستكون خير ما كتبت .

وضحكت بدورى وقلت لها :

- كثيرون غيرك قالوا ما قلت واضاعوا وقتى ووقتهم فى قص حياتهم على متخذين منها عجبا ، وأخرج منهم فى النهاية بلا شيء .
أو بما لو فكرت فى كتابته قصة لما سمح لى أحد بعد ذلك بالكتابة .

ونظرت الى المرأة وهزت راسها هزات خفيفة وقالت :

- لست أنا ، وليست قصتى . على أى حال . لتسمعها فإن كانت سخيفة ، فما يضيرك أن تزيد السخافات التى سمعتها سخافة !
وبدأت المرأة تقص قصتها فكان أول ما قالته :

- بدأت حياتى خادمة .

ثم نظرت الى فلم تر منى بادرة دهشة . فسالتنى فى شيء من الاستنكار :

- لم لا تدهش ؟

- ولم الدهش . وأغلبكن قد بدأ حياته كذلك . ولست أرى فى ذلك ما يستدعى الخجل قط . على العكس . أننى أرى فيه ما يستدعى الفخر لأن الانسان فى هذه الحياة أربعة أنواع : واحد يبدأ حياته شيئا فينتهى الى لا شيء ، وواحد يبدأ حياته شيئا فيستمر شيئا ، وثالث يبدأها لا شيء ولا يزيد فى النهاية عن لا شيء ، والأخير يبدأها وهو لا شيء فيصبح فى النهاية شيئا كثيرا . فلو وازنا بين الأربعة الأنواع لوجدنا شرها الأول وخيرها الأخير ، أما الثانى والثالث فكلهما انسان لم يستطع أن يضيف الى نفسه أكثر مما وجدها عليه ، فهو انسان عادى . وأنت يا سيدتى وغيرك ممن بدأ حياتهن خادمت أو ما شابه ذلك . ثم صرن الى مثل ما صرت عليه . من النوع الرابع . أى من خير أنواع الانسان . ولو كنت خادمة .

ورأيت المرأة قد استغرقت فى الضحك ثم رفعت الى بصرها
قائلة :

— على أية حال أنا لم أخجل قط من أن أقول انى كنت خادمة ..
غير انى لست أرى ما تراه من أن أعلن فى كل فرصة انى كذلك ..
لأن الناس ليسوا كلهم عقلاء مثلنا ، أو على الأصح ، ليسوا كلهم
مجانين مثلنا .

— أتمى قصتك .. لقد قلت انك بدأت حياتك خادمة .
— أجل ! خادمة فى منزل بحى السيدة زينب .. وكم عدوت
بقدمى العاريتين أقطع حارة السيدة ذهابا وإيابا حاملة زجاجة
الزيت ، أو طبق الفول ، أو سلة الخضار .. انى لأتخيل أحيانا
لو كانوا يضعون للانسان عدادا كما يضعون للعربات اذاً لسجل
العداد الذى ركب فى جسدى الصغير وقتئذ آلاف الأميال من مجموع
تلك المسافات التى كنت أقطعها بين الباعة فى شارع السد البرانى
وبين الدار فى جنينة لاذ .

ولم أكن أحس بالكثير من السعادة وقتئذ .. رغم أن أهل الدار
لم يكونوا قساة غلاظ الأكباد ، فقد كان رب البيت رجلا كثير المرح ،
طيب القلب .. ولم تكن صلتى به لتزيد عن تحضير الجزمة والشراب
واللبيسة ، وكانت تلك أسهل الواجبات الملقاة على عاتقى .. ولم
تكن ربة البيت أيضا بالمرأة الشريرة .. ولكن كان أسوأ ما بها أنها
كانت تستشيط غضبا عندما يطول بى الغياب فى السوق ، وكنت أنا
لا يسعدنى فى ذلك الوقت قدر التلكؤ واللعب فى الطريق ، وكان لى
العذر كل العذر فى ذلك ، فقد كنت لم أعد بعددور الطفولة . وكانت
تلك هى الفرصة الوحيدة التى أطلق لنفسى فيها عنان اللهو واللعب ..
ولكن المرأة لم تكن ترحمنى وقتئذ من علة ساخنة عقب كل غياب .
وشئ آخر كان يغيظنى فى المرأة هو شدة حبها للنظافة .. فكنا

لا نكاد نكف لحظة عن الكس والمسح والتنفيض ، ولكننى اعترف
أنها كانت تقوم وحدها بمعظم العبء ٠٠ فقد كانت حمارة شغل
وكان يوجد فى الدار غير الرجل والمرأة ابناهما الصبيان اللذان
يقاربانى فى السن ، وهذان لم اكن ألقى اليهما كثير اهتمام ٠٠ رغم
ما كان يصيبنى من أحدهما من الشلاليت ٠٠ عندما أنسى أن أمسح
أحذيتهما ثم أدعى أنى قد مسحتها ٠

اقول رغم ما كان يصيبنى من أحدهما ٠٠ لأن الآخر وهو الأصغر
كان الوحيد فى الدار الذى لم يصيبنى منه أذى مذ دخلت الدار ٠
لقد كان الصبى طيب القلب ، رقيق النفس ، فكنت كثيرة
الاطمئنان اليه ٠٠ لا أحس له هيبة السادة ٠٠ بل كنت أشعر دائما
عندما أحدثه أو أقضى له حاجة أنه اما أن يكون هو خادما مثلى ،
أو اكون أنا من أهل الدار مثله ٠

وكان أكثر ما يحببني فيه وقتئذ أنه كان كثيرا ما يجود على
بجزء غير يسير من نصيبه من الطعام « المخصوص » ، وأقصد
بالطعام المخصوص - تلك الأنواع التى لا يتذوقها الا السادة فقط -
والتي لا يكون للخدم نصيب منها الا الرؤية والرائحة - أو مع أحسن
الفروض - بقايا أو فتات لا تشبع من جوع ولا تغنى من نهم ، وأذكر
متها على سبيل المثال وقتئذ : المنجة ، والجبنة الرومى ، وعيش
السراية بالقشدة ، وغيرها من الأصناف التى كنت أتحرق شوقا
اليها ٠

٠ ومرت الأيام وينفسي من السخط ما بنفسي كل صبية فى مثل سنى
تعمل خادمة ٠٠ ولكننى لم اكن أستطيع سوى البقاء لأنى كنت
لا أعرف أين أذهب حتى أحسست فى ذات مرة أن هذا السخط يزول
من نفسى ٠٠ وأن شعورا آخر قد حل محله ٠٠ ليس فقط بالرضا ٠٠
بل بالسعادة والغبطة :

ولم أكن أدري وقتئذ سر ذلك الانقلاب الذى أصابنى والذى حجب
الى الدار وأهل الدار ٠٠ ولم أحاول أن أناقش نفسى فى سبب
شعورها بالسعادة والغبطة ، بل اكتفيت بأن أتركها تنغمر فى ذلك
الشعور الذى لا تدرى كنهه ٠

وأذكر أنى كنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ٠٠ أى فى تلك
السن التى يبدأ فيها النضج ٠٠ والتى تحاول المرأة فيها أن تطل من
جسد الصبية ٠٠ وأذكر أيضا أن محور اهتمامى قد أضحى ذلك
الصبى الأصغر ٠٠ وأنى كنت أركز جهودى فى محاولة ارضائه وفى
خدمته ٠٠ وقد يكون فى ذلك عرفان للجميل فقد كان الصبى ما زال
على بره بى وحده على ، وكان كثيرا ما يتغاضب مع أخيه أو مع
أمه بسبب محاولتهم ايزائى لسبب أو لغير سبب ٠

أقول لك انه قد يكون فى اهتمامى بالصبى عرفان للجميل ، ولكن
الواقع أنه لم يكن كذلك ولكنه كان حبا !

لا تدهش يا سيدى ، ولا تتهمنى بالحق إذا ما حاولت . وأنا
خادمة ، أن أحب سيديا لى لأن الحب لا خيرة فيه ٠٠ بل هو من
الأشياء التى يضطر اليها الانسان اضطرارا ، وإن المرء ليصاب به
كما يصاب بمرض من الأمراض ٠ فإن حق لنا أن ننتهم مريضا
بالتيفود بالحق لأنه لم يصب بمرض أخف وطأة ٠٠ انفلونزا مثلا
٠٠ أو زكام ، لحق لك أن تتهمنى بالحق لأننى أحببت سيديا ٠٠ ولم
أحب خادما مثلى :

لقد كان لا يمكن لى الا أن أحبه ٠٠ لأن الصبى كان لا بد أن
يحب ٠٠ لقد أحبه كل من حوله ٠٠ أمه وأبوه وأخوه وأصدقائه
وأقرباؤه ٠٠ وكل بنات العائلة اللاتى لهن به صلة ٠ دعنى أصفه
لك ، كما كنت أراه فى ذلك الحين ٠٠ فى نحوله وصفاء عينيه ،
ونقاء بشرته ، وشعره الذهبى ، وأسنانه البيضاء الناصعة التى لم

يكن أسهل على الانسان من رؤيتها ، فقد كان دائم الضحك ، كثير المرح ، حلو الفكاهة .

وطوبيت حبي في صدري ، راضية بهذا العطف الذي كان يشاركني فيه كل من حوله ممن يستحقون منه العطف كالشحاذين والكلاب الضالة والقطط الجائعة . . حتى كان يوم دفعني فيه شيطان الحب الى أن اتطلع الى أكثر من الشفقة والعطف .

كان ذلك يوم خميس . وقد حضر الصبي من المدرسة ، فطلب من أمه نقودا لأنه سيذهب غدا في رحلة مع أصدقائه . . . ولكن أمه أنباته أنه لا داعي لتلك الرحلة لأن بعض الأقرباء سيتناولون الغداء معهم في الغد . كما أنه لا يوجد معها نقود . . وبدت خيبة الأمل تظهر على وجهه . . وأخبر أمه أنه قد اتفق مع اخوانه فلا يمكنه النكوص ، وأنه كان يتلهف على الذهاب الى تلك الرحلة منذ زمن طويل .

ولكن المرأة أصرت على ألا يذهب . . وألح الصبي فزادت المرأة اصرارا . . وأخيرا غادرها الى حجرته وسمعت صوت بكائه ، وكنت اول من سمعه يبكي ، ولا أدري ما الذي جعلني لا أتمالك نفسي فأبكي أنا الأخرى . . لقد تمنيت لو استطعت أن ادخل عليه فأحتضنه وأكفكف دمه وأعطيه ما يشاء من النقود . . ولكنها كانت أمنية عسيرة التنفيذ .

وبعد برهة حضر الأب من عمله وعلم من الأم بما حدث فسمعته يؤاخذها على ذلك العناد الذي لا مبرر له . . ورأيته يدخل على الصبي ويعطيه ما يريد من النقود .

ورأيت الصبي بعد ذلك ضاحكا متهلل الوجه ، وأقبل على يحدثني عن الرحلة التي سيذهب اليها في الغد وطلب مني أن أجهز له بعض ما يلزمه .

وقبيل العصر خرجت من الدار لأبتاع بعض الحاجيات وانطلقت

أعدو فى حارة السيدة ، حتى وصلت الى عم عبد المعطى البقال
فى أول شارع السد وطلبت منه ما أريد ، ثم مدت يدي فى جيب
الجلباب ٠٠ فلم أجد النقود ٠

وحررت فى أمرى ٠٠ وتعلكنى خوف شديد ٠ لقد سقطت منى فى
الطريق ٠٠ ترى كيف أستطيع العودة الى البيت ؟ وترى ماذا
يصينى من سيدتى عندما تعلم أنى قد أضعت النقود ؟ !

وعدت أدراجى فى الطريق مطاطئة الرأس دامعة العينين أبحث
بعينى فى جوانب الطريق لعلى أجد النقود هنا أو هناك ٠ ولكن متى
كان الانسان يجد شيئاً يبحث عنه ؟ وعلى الأخص اذا كان نقودا ٠٠٠
وأخيرا جلست أنتحب على الرصيف ٠٠ ويخيل لى أن غيبتى قد
طالت ، فقد رأيت الصبى يقبل على باحثا عنى ، وعندما وجدنى
أبكى ظهرت عليه الدهشة وسألنى عما بى ٠٠ فأنبأته أن النقود قد
فقدت ٠٠ ولاح الحزن على قسماته برهة ٠٠ وسألنى كم كانت النقود
٠٠ فأخبرته بها ٠٠ ورايته يفكر قليلا ، ثم انبسطت أساريره مرة
واحدة وجذبني من يدي قائلا : هيا الى البقال ٠

ولم يعطنى فرصة للتفكير حتى أعرف ماذا ينوى أن يفعل بل
أخذ يعدو وأنا أعدو خلفه حتى وصلنا وابتعنا الأشياء المطلوبة .
ومد يده فى جيبه فأخرج النقود وأعطاهما للرجل ٠

وأدركت عندئذ أن النقود لا بد أن تكون نقود الرحلة التى كان
يحلم بها والتى أبكى لأن أمه رغبت فى حرمانه منها ٠٠ وأحسست
الحزن يعصف بى ٠٠ فقد كنت أنا التى سأحرمه هذه المرة ٠٠

ونظرت اليه وقلت له : انى سأنبئهم بالحقيقة . حتى يردوا اليك
نقودك ٠٠٠ ولكنه نظر الى فى غضب وقال لى : اياك أن تقولى
شيئا ٠٠ سأعرف كيف أتدبر الأمر ٠

وعندما عدنا قال لأمه التى كانت تستشيط غضبا ٠٠ الازدحام
كان شديدا عند البقال وانها لا ذنب لها فى هذا التأخير .
وفى تلك الليلة لم أذق النوم الا لما ٠٠ فقد كنت افكر ماذا
سيفعل الصبى فى الغد وليس معه نقود ٠٠ وفى الهنيهات التى نمت
فيها كنت أحلم أنى قد عثرت على كنز ، وأنى أخذت أحمل منه النقود
الى الصبى لكى يذهب الى رحلته .

وفى الصباح خرج الصبى مبكرا بعد أن جهزنا له طعامه فى
حقيبته الجلدية وملأنا له الترموس بالمياه المثلجة .

وقبيل الغروب عاد وعليه غبار الرحلة ٠٠ وأخذ يصف لنا فى
صوت ملء بالابتهاج ما رآه وما صادفه ، وكنت أعجب فى نفسى
كيف حصل الصبى على النقود ٠٠ ولكنى علمت منه بعد ذلك أنه
قضى ليلة يومه جالسا عند « عم امام الحلوانى » وأن الغبار الذى
كان عليه من غبار الحارة وأن المعلومات التى أنبأنا بها لم تزيد على
ما قرأه فى كتاب « القراءة الرشيدة » .

هذه هى الحادثة التى جعلت شيطان الحب يسلبنى نعمة القناعة
بالشفقة والرضا بالعطف ، فأحاول أن أطمع منه فى حب كذلك الحب
الذى يجيش به صدرى ٠٠ وإذا أنا أحس صراعا فى نفسى ٠٠ فقد
كانت المرأة التى تكمن فى تحاول أن تبرز الى الوجود .

ومرت الأيام بعد ذلك وكل منا يسير فى طريق النضج ، أنا الى
فتاة ٠٠ وهو الى فتى ٠٠ ووجدتنى أوجه عناية كبرى الى زينتى -
ان كان يمكن أن يكون هناك زينة لخادمة - واستطعت أن أحصل على
مرآة صغيرة وضعتها فى صندوق ملابسى . وكنت أحتفظ بمشابك
الشعر التى اعثر عليها ملقاة من شعر سيدتى على الأرض ، وكنت
أحاول جهدى ألا أبدو أمامه الا وأنا راضية عن منظرى ٠٠ والواقع
أنى لم أكن قبيحة بحيث أياس من الحصول على حبه أو اعجابه ٠٠

على النقيض لقد كان الكثيرون يقولون عنى اننى جميلة ٠٠ وكانت
كلمات الغزل تلقى على من كل جانب ، اذا ما سرت فى الطريق .
من الخدم والبوابين والباعة ، بل من الأفندية و البهوات فى كثير
من الأحيان ٠٠ ولم اذهب بعيدا وأخوه نفسه - وقد لا أكون كاذبة ،
اذا قلت وأبوه أيضا - قد بدا يوجهان الى نظرات الافتتان من طرف
خفى ، وفى غفلة من الأم ؟

ولكنه هو ٠٠ هو وحده ٠٠ الذى كنت أتلهف عليه ٠٠ وأتمنى
أن يحس انى قد أصبحت امرأة ٠٠ لم يكن ينظر الى أكثر من نظراته
القديمة ، ولم يرنى أكثر من خادمة مسكينة تستحق العطف .

وفى ذات يوم خرج أهل الدار جميعا وبقيت فى البيت وحيدة ،
وزين لى الشيطان أن أرى نفسى عندما أبدو كسيدة فقد وددت أن أرى
هل أكون ذات وقع فى نفسه اذا أتاحت لى الظروف أن أكون سيدة ؟
وهل أنا أقل جمالا من أولئك السيدات اللاتى أبصرهن ؟

ودخلت حجرة السيدة وأخرجت أدوات الزينة وبدأت أزين وجهى
وأمشط شعرى ، فلما انتهيت نظرت الى المرأة فوجدتنى رائعة ،
ولم تكن ملابس السيدة تناسبنى ، ولكنى مع ذلك أخذت أجربها
ثوبا ثوبا ، لأرى كيف أبدو فيها .

وأخيرا انتهيت من تجربتها جميعا ٠٠ ووقفت أمام المرأة وأخذت
أجرد نفسى من الثياب قطعة قطعة ٠٠ لقد رغبت فى أن أرانى كيف
أبدو عارية .

يا لله ٠٠ انى ما ظننت قط انى رائعة كما بدوت ٠٠ هذا الصدر
الممتلئ المستدير يبدو جامدا كأنه قد صنع من حجر ، وهذا الجسد
المستوى بلا ثنيات ولا زوائد . وهذا الخصر الرقيق ، وهاتان
الساقان الممتلئتان ٠٠ لقد أحسست الثقة تملأ نفسى ، والسعادة

يفيض بها قلبي .. أجل .. لقد اطمأنت الى أنى ساستطيع الحصول
على حبه .

وقى نفس المساء وجدته يجلس وحيدا فى حجرة المكتب وكل من
فى الدار رقود ، وأحسست بلهفة شديدة عليه ، وتمنيت أن أهب
نفسى له .. وكانت الفرصة سانحة .. ولم أكن أخشى أحدا .. الا
هو .. فقد خشيت الا أفلح فى اغرائه .. ولكنى تذكرت صورتي
وأنا أمام المراة فعادت الى الثقة .. ودخلت الى الحجرة .. ورفع
الى عينيه وسألنى عما أريد .. واضطربت بعض الشيء ولكنى
اقتربت منه .. وشعرت بالرغبة تعصف بى .. فلم أدر الا وقد
احتضنته بين ذراعى ووضعت فمى على فمه .

ولا شك أن الفتى قد اعترته دهشة شديدة .. فقد سادت لحظة
صمت .. ثم رأيته يدفعنى بعيدا عنه . ويرفع يده فيهورى بها على
فى صفقة لم أذق مثلها فى حياتى قط .

ولم أحس يوما ما بألم الخذلان ولا مرارة الهزيمة كما أحسست
بهما فى تلك الليلة .. لقد انسحبت من الغرفة فى بطء وعدت الى
فراشى فى المطبخ وارتعيت عليه . وقد أخذتنى الرجفة كأننى فى
النزع الأخير .

لقد كرهت نفسى .. لأننى لا أستطيع أن أكرمه .. وقلت لنفسى
أننى المخطئة ، لأننى كنت واثقة أنه لا يخطئ .. لقد كنت مغرورة
ونلت جزاء غرورى .

ولكن لم لا يكون كغيره من الناس ؟ لم يابى الا أن يرانى
كخادمة ؟ لم لا ينزل مرة عن هذه المثالية التى هو فيها .. ؟ ترى
لو كنت قد ذهبت الى أخيه أو أبيه . أو الى أى مخلوق سواه ، أكان
يمر بى سكون الليل كما مر معه ؟ أترى نصيبى منهم كنصيبى منه

صفحة وإزدراء ؟ ! أقسم أنى لو فعلت لكنت الآن مستلقية فى فراشهم .

ولكنى مع ذلك أحبه .. هو .. وأريده أكثر مما أريد أى شىء فى هذه الحياة .

وطال بى التفكير فى هذه الليلة وصممت فى النهاية على أن أترك الدار .. لأنى أريد حبه .. ولن أحصل عليه ما دمت خادمة .. فقير لى أن أخوض غمار الحياة ، ومن يدري ؟ ربما ساعدتنى الظروف فصرت فيها شيئاً .. واستطعت أن أنتزع منه الحب والاعجاب ، وحتى لو لم أصر شيئاً .. فذلك خير لى من البقاء هنا كالمهاجر الصادى بجوار غدير حرم عليه مسه ، وأغلب ظنى أنه حتى الشفقة التى لم أكن بها قانعة ، ستبديل احتقاراً وإزدراء .

وقبيل الفجر هربت من البيت وبنفسى لوعة وبقلبى حرقة . ولا أظن هناك داعياً لأن أنكر لك تفاصيل تلك الفترة من الزمن التى مرت بى بعد ذلك ، ولكنى أؤكد لك أنى لم أستطع أن أصل الى أول درجة من سلم المجد والشهرة الا بعد أن أدمى حصى الطريق قدمى ... ومزقت أشواكه جسدى . وأؤكد لك أن عينى لم تبصرا النور الا بعد أن طالت بهما الحلقة ، وأنى قد رايت فى هذه الفترة المظلمة أسوأ ما يمكن أن تراه امرأة فى الحياة الدنيا .

ومع ذلك فلم أنقطع فى تلك الفترة عن رؤيته قط .. ولكن دون أن يرانى أو يحس بى .. فقد كنت أعرف مواعيده وأعرف حركاته وسكناته ، وكان فى رؤيتى له غذاء لروحي الجائعة ونفسى الشريفة الظماى .

وفى ذات ليلة - بعد أن أخذ نجمى يبرز ويرتفع - كنت فى إحدى الحفلات وقد بدأت الغناء .. فإذا أنا المح وجهه بين الحاضرين ، وأصابنى اضطراب : فقد كنت أتمنى منذ بدأت أعتلى

قمة الشهرة ٠٠ أن يرانى فى حياتى الجديدة ٠٠ وأن يحس أنى
أستحق منه أكثر من الشفقة أو الاحتقار ٠٠ وتماكنت نفسى وبدأ
الاضطراب يزول شيئاً شيئاً ، وأخذت أقنى نفسى فى الغناء فقد كنت
أحس أنى أغنى له ٠٠ له وحده .

وانى لأذكر أن هذه الحفلة هى التى دفعتنى الى قمة المجد
وأنكر كيف انهال على المهنثون . ولكنى لم أحس بلذة النجاح
والانتصار . الا عندما وجدته يقبل على ويشد على يدي مهنتاً .
ان من العيب أن أحاول وصف سعادتي فى تلك اللحظة ، فمثل
هذه المشاعر لم تخلق لها الالفاظ التى تستطيع أن تعبر عنها .

لقد تسلمت به من وسط الازدحام ودعوته الى مرافقتى الى بيتى
٠٠ وعندما وصلنا الى البيت سألته أن يصعد معى وأخيراً احتوتنا
غرفة واحدة ٠٠ تختلف كثيراً عن الحجرة التى جمعتنا فى المرة
الأولى ٠٠ بذلك العطر الذى يتضوع منها وذلك الجو السحري الذى
يملؤها ٠٠ وأنا ٠٠ أجل ٠٠ أنا ٠٠ لم أعد بعد خادمة تسلمت من
المطبخ بثيابها التى تفوح منها رائحة الجاز والبصل ٠٠ بل امرأة
يسعد كثيرون من الناس بأن تشير لهم بتحية من يدها ٠٠ امرأة ذات
شوب أنيق يبرز من جسدها أكثر ما يخفى ٠٠ ويفوح منها شذى عطر ،
لو نطق لقال : « ضمنى بين ذراعيك » .

وكنت أكثر حنكة فلم أحاول أن أتسرع فأضمه الى كما فعلت فى
المرة الأولى ٠٠ بل جلست أمامه وأخذت أغنى له بصوت خافت ٠٠
ثم نهضت بعد ذلك لأبدل ثيابى . ووقفت أمامه بالثياب الداخلية ،
فرايته يقترب منى ٠٠ ومد ذراعيه فأحتوانى بينهما .

يا للأمل الذى تحقق ٠٠ لقد أحسست بأنفاسه أخيراً تلهب
أنفاسى . وبشفتيه تضغطان على شفتى ٠٠ وانتظرت أن يحملنى الى

الغراش ٠٠ ولكنى رأيته ينظر الى الساعة فى يده ثم يدفعنى عنه
برفق وهو يقول :

— لقد تأخرت !

ونظرت اليه فى دهشة شديدة وحنق ٠٠ ولكنه هز رأسه ببطء
وقال :

— انى متزوج ٠٠٠

« متزوج » ؟ ! ٠٠ أهكذا بعد طول الانتظار أجده قد أقلت من
يدى ٠٠ ولكن ماذا فى أن يكون متزوجا ٠٠ وماذا يضير زوجته التى
تتمتع به ليل نهار ٠٠ أن أتمتع به ساعة أو ساعتين وأنا التى أدميت
قدمى حتى وصلت الى تلك اللحظة ؟ !

ووجدت من العيب أن أستبقيه ٠٠ فقد رأيت فى عينيه نظرة العزم
والإصرار التى رأيتها فى المرة الأولى ٠٠ وأدار لى ظهره تاركا اياى
غريقة فى ألم الخذلان ومرارة الخسارة تماما كما تركنى أول مرة ،
لا ينقصنى الا الصفعة ، وحتى هذه لم يبخل على بها ٠٠ فقد رأيته
يدير وجهه الى كمن تذكر شيئا ٠٠ ثم مد يده فى جيبه وأخرج بضع
أوراق مالية تركها على المنضدة .

وغادر الحجرة وتركنى ٠٠ كما كنت ٠٠ خادمة ذليلة .
يا للرجل ٠٠ انه يأبى الا أن يكون مثاليا . كما كان فى طفولته ٠٠
كم أود أن أكرمه ٠٠ ولكنى لا أستطيع ٠٠ لقد أمسكت بالنقود
وحفظتها عندي لأنها شيء يذكرنى به .

ومرت الأيام والأشهر والسنون ٠٠ ولم أكن ألقاه الا لقاء عابرا ،
ولكنى كنت فى كل مرة ألقاه فيها أحس أننى لم أزل أحبه وأننى
لا يمكن أن أكف عن حبه حتى أموت .

وأخيرا ماتت امرأته ، والتقيت به بعد ذلك ٠٠ ورأيت بارقة أمل
قد سنحت لى ، فسألته أن يتزوجنى ٠٠ أجل ! أنا التى سألته ٠٠

ورأيته قد بهت فى أول الأمر ٠٠ تماما كما بهت حين دخلت عليه
الحجرة وأنا خادمة واحتضنته وقبلته ٠٠ ولكنه فى هذه المرة ٠٠
كان أكثر رققا ٠٠ وألين جانبا ٠٠ ولم يكن نصيبى منه صفقة ٠٠
أو على الأصح كانت الصفقة منه غير مقصودة ٠٠ أو ٠٠ من يدري ؟
لقد قبل الزواج بى ٠٠ ولكن الزواج لم يكد يتم ، ولم أكد أحس
انى قد حصلت عليه بعد طول انتظار ٠٠ حتى أصابه مرض أخذ
يشدد به ويتفاقم ٠٠ وبعد بضعة أيام ٠٠ هوى على بالصفحة الثالثة
- أو قل بالطعنة الثالثة - وغادر الحياة ، وتركنى فى هذه المرة ٠٠
لا خادمة ذليلة ٠٠ بل نفسا بالية ، وروحا ذاوية ، وامرأة مخدولة
خاسرة .



وصعقت المرأة بعد ذلك . فلم تنبس ببنت شفة ، ونظرت الى
وجهها فرأيت الحزن قد تجسم فى قسعاته ٠٠ فأدبرت وجهى الى
الناحية الأخرى وتركت دمعين تنسايان من عيني ٠٠ وكان هذا هو
ما علقت به على القصة عندما سمعتها من المرأة ، أو ٠٠ عندما
أبصرتها من الزاوية الأخرى .

امراة نائمة

هذه قصة امرأة ٠٠ قد اظلمها كثيرا لو رميتها بالجنون ، رغم
أن صاحبتى التى ذهبت بى لزيارتها ٠٠ قد انذرتنى سلفا بأنها امرأة
مجنونة ٠٠ وان كان جنونها لا يزيد على أنها تعتقد أنها نائمة ، وأن
كل ما تفعله وتراد ، لا يعدو أن يكون حلما .

واقول الحق اننى كنت أشعر ، وأنا فى طريقى لزيارة المرأة ٠٠
أنى سأجد شيئا يبعث على التسلية . بل كنت أعتقد أنى لن أعدم
وسيلة أعيدها بها الى وعيها وأثبت لها أنها فى يقظة تامة وأنها
ليست نائمة .

ومع ذلك ، فقد لقيت المرأة وسمعت حديثها ٠٠ واقسم أنه ما من
امرىء استطاع أن يستدرف من عيني الدمع كما استدرفته هذه
المرأة ٠٠ حتى لقد انتهى بى الأمر الى أن أجزم لها أنها ما زالت
نائمة ٠٠ وأن كل ما تراد ليس الا حلما .

أجل لقد كان ذلك خير عزاء لها ٠٠ ولم لا !! ليست الحياة كلها
احلاما وأوهاما ٠٠ فعلام اليقظة اذا ٠٠ ؟ !

هذه هى قصة المرأة كما قصتها على ٠٠ وكما استطاعت ذاكرتى
أن تعيها ٠



كان ذلك فى يوم من أيام الصيف القائلظ ، التى يستيقظ الانسان
فيها فيجد الشمس قد ملأت جوانب الحجرة ، حتى ليخيل اليه أن
اليوم قد بدأ ظهرا ، وأن الشمس قد أشرقت فجأة من كبد السماء ٠
فلا يحس المرء بذلك الصباح الرطب الندى ، بل يشتم من الجو حرارة
خائفة تنذر بيوم من أيام الجحيم ٠

بدأ النزاع بيننا ونحن على مائدة الافطار ، ولقد كنت حمقاء
وقتئذ عندما مهدت السبيل لشيطان الشر أن يهبط بيننا ، اذ كنت
أعلم قبل أن أبدأ الحديث أن ذلك الموضوع الذى سأطرقه سيؤدى بنا
حتما الى الشجار ٠٠ ومع ذلك فقد طرقت ٠٠ فقد كنت متعبة
الأعصاب ، منهوكة القوى ، عقب ذلك الأرق الذى أصابنى فى الليلة
السابقة من فرط حرارة الجو ، وكنت أحس بضيق فى نفسى من ذلك
الركود المميث الذى شمل كل ما حولى ٠

وكان موضع الشجار هو اصرارى على أن نسافر الى الاسكندرية
٠٠ واصراره على أنه لم يحن الوقت بعد للسفر ، فما زال لديه الكثير
من الأعمال التى تستوجب بقاءه فى القاهرة ٠ وكنت أعلم أنه على
حق فى قوله ، ولكننى اتهمته بأنه يأبى الا مضايقتى ، وأنه يستطيع
أن ينجز هذه الأعمال بالحضور الى القاهرة يوما أو يومين
هى الأسبوع ٠

وكان هادئا فى مناقشته معى كل الهدوء ٠٠ ولكننى أعترف أنى
قد استثرت حتى انتهى به الأمر الى أن يترك المائدة قبل أن يتم
طعامه ٠

ورأيت يتركها برهة قبل أن يغادر الدار ٠٠ لعلى أعدل عن غضبى

فاسترضيه بكلمات طيبة ، ولكنى لم أفعل ٠٠ وأخيرا سمعت الباب يفتح ، وسمعت وقع قدميه تهبطان الدرج ٠٠ فشملنى السكون ٠٠ وأحسست بأن الدموع توشك أن تفر من مقلتى ، ولكنى جاهدت فى حبسها ، وتعالكت نفسى ، فقد كنت عازمة على ألا أدع الدم يتطرق الى . وأن أصر على أنى لم أكن مخطئة فى خلق ذلك الشجار الذى لم يكن له أى مبرر ولا داع .

وتركت المائدة ٠٠ وكان على أن أبدا القيام بتلك الأعمال التى اعتدت القيام بها بمساعدة الخدم فى كل يوم ٠٠ من نظافة الدار الى اعداد الغداء ، ولكنى كنت أحس بضيق وتبرم ، وأشعر بتعب يدفعنى الى الرقاد فى كسل واسترخاء ٠٠ فدلقت الى حجرة النوم واضطجعت على احدى الأرائك ، وقد أمسكت باحدى المجلات ألقبها بين يدي ، ولكنى قذفت بها بعد لحظات . ورفعت رأسى فأبصرت بصورتى فى المرآة وبدأت أتأملها ، ثم حانت منى التفاتة الى تلك الصورة المعلقة على الحائط والتى تمثلنى بجوار زوجى فى ثوب الزفاف . وقد أشرق وجهى بابتسامة مضيئة ٠٠ وشع من عيني بريق الأمل والهناء . وتنقل بصرى بين الصورتين : صورة الحائط . وصورة المرأة ٠٠ أو صورة الماضى ، وصورة الحاضر

يا للسنوات السبع الطوال ، لقد أطفأت بريق الأمل . ومحت ذلك الاشراق الذى كان يضئ جوانح النفس وجعلت مكانه السخف والتبرم ، فبدا الوجه فى كآبة وظلمة .

ترى ما مبعث ذلك الشئ الخفى الذى يثير فى نفسى القلق وعدم الرضاء ؟ وما علة ذلك الشئ الذى يدفعنى دائما الى اثاره الشجار ، حتى لقد أضحت حياتى لا تكاد تخلو لحظة من شقاق وجدال ؟ !
ان العلة لا شك كامنة فى نفسى ، والداء مستوطن فى قلبى .
وسبحت ببصرى من الناقدّة وشرّد ذهنى بعيدا ينقب فى زوايا

الماضى حتى استقر به المقام فى بقعة بعيدة نائية .. ما زالت تبدو
للعين نظرة مزدهرة .. فما استطاعت كف القدم أن تذبل ورودها
أو تمحو شذاها .. فهى هى .. فى اشراقها ولآلائها ، رغم تلك
الظلمات التى تراكمت حولها من مر الزمن وكر السنين .

كان ذلك منذ تسع سنين خلت .. وكنت وقتذاك طالبة فى الجامعة
.. وكنت أحيط نفسى بجو ملىء بنشوة الأحلام ، الأحلام الذهبية
البراقة التى تجيد فتاة فى الثامنة عشرة نسجها حول نفسها ..
عندما ينفتح قلبها للحب .. فلا تكاد تغرس فيه بذور الهوى حتى
تراها قد أورقت وأينعت .. وأضحت فى غمضة عين روضة دائية
القطوف وأرفة الظلال .

وكان هواى فى بادئ الأمر هوى من جانب واحد .. وكنت
أكتفى من الحبيب بالنظر اليه وسماع حديثه .. وكنت أجد فى ذلك
كفايتى ولا أطمع فى شيء سوى ذلك .. إذ لم يكن يخطر لى أنتى
ساستطيع أن أثير اهتمامه من بين ذلك الجمع من الفتيات اللاتي
كنت أجلس بينهن .. فقد كنا جميعا لديه سواء ، ولم يكن بى
ما يميزنى عنهن مما يجعلنى أطمع فى أن أكون محط أنظاره ..
وحتى لو كنت ممتازة بأى شيء فقد كنت على يقين من أنه لن يكون له
صدى فى نفسه . إذ كان قليل الاهتمام بنا .. وكان يبدو لنا دائما
أنه فى عجلة من أمره ، فلا يكاد يلقى محاضرتة حتى يفر هاربا دون
أن يعطينا فرصة لمناقشته أو محادثته .

ومما كان يزيد فى اعتقادى أنى لن أجد لذلك الحب صدى فى
نفسه ، أنى لم أكن عاشقته الوحيدة .. فان كل الفتيات كن عاشقات
له .. والواقع أنه كان من الخطأ أن يجعل مثله مدرسا لفتيات ..
فقد كن لا يملكن إلا أن يقعن فى حبه .. ومع ذلك ، وبالرغم من كل
ما سبق ذكره .. وبالرغم من قناعتي من الحب بأوهامه وأحلامه .

فقد بدأت بالفعل أثير اهتمامه ، ولا أدري كيف تطور الأمر ، ولكنى أذكر أنه قد بدأ بأن عدوت وراءه ذات مرة فاستوقفته لأسأله سؤالاً تافهاً ، فنظر الى بحق وهز رأسه ، ثم سار فى طريقه . ومنذ ذلك اليوم أضحى يخصنى بشرحه ويكثر من التحدث الى ، اعتقاداً منه أتنى على جانب كبير من الغباء ، وكنت أنا أمعن فى ذلك لأسترعى اهتمامه ، وهكذا ظللت أستدرجه حتى وقع فى الشرك .

أجل ، لقد انقلب اهتمامه بالشرح لى الى الاهتمام بشخصى ، وبدأت أدرك جلياً من نظرات عينيه أنى قد أصبحت عنده ، ذات موضوع .

وتطورت العلاقات بيننا ، وأصبحنا أكثر من مدرس وتلميذته . حتى كان ذات يوم سألنى الزواج منه . . . قلم أصدق أذننى لفرط مفاجأتى بسؤاله .

وتمت الخطبة . . . وأنا أحس أن العالم كله قد أضحى بين يدي . وحدث بيننا ذات يوم بعض المشاحنات التافهة التى كثيراً ما تحدث بين الخطيبين . . . ولا أدري كيف تملكنى إذ ذاك شيطان الحمق . . . فقذفت اليه بخاتم الخطوبة . . .

وقد يكون عذرى فى ذلك العمل الأحمق . . . أنى لم أكن جادة فيه قط . . . وأنى كنت على يقين من أنه سيعيده الى بعد يوم أو يومين . . . ولكنى أدركت بعد ذلك أنى كنت خرقاء . . . وأن الظروف كانت أكثر خرقاً وجنوناً ، فقد اضطر للسفر الى الخارج بعد يومين . . . وكان سفره فجأة وعلى عجل . . . ومنعت كلا منا كبرياؤه من أن يخطو الى الآخر . . . فسافر دون أن أودعه .

ولم تكن غيبته طويلة فقد عاد بعد بضعة أشهر ، ولكنه عندما عاد لم يكن وحيداً ، بل كانت معه امرأة . . . أجل . . . كانت معه زوجته !

وليس من السهل . أن يتصور المرء وقع الصدمة التي أصابتنى
وتتذاك . . . فلقد كنت أشبه بصرح شامخ على الذرى رفيع البنيان .
.. أصابه صيدع من أساسه . . . فإذا هو قد دك فى الأرض دكا .
ومرت الأيام . . . وبدأت أعاود السير فى الحياة متحاملة على
نفسى . . . وتقدم عند ذاك لخطبتى قريب لى كان قد شاهد القصة من
أولها . وكنت أشعر أنه يكن لى الكثير من الحب وان كنت لا أحمل
له سوى صداقة خالصة .

وفكرت كثيرا قبل أن اقبل زواجه . . . وانتهى بى التفكير الى
قبوله . وأرتنى الأيام أنى لم أخطئ بزواجه قط . فقد استطاع برفقه
وحنانه أن يضمه جراح قلبى ، وأن ينسينى حبى الأول .
ومرت السنون الأولى من زواجنا وأنا أحس بالهناء تملأ
جوانحى . . . لقد كنا مثالا لزوجين سعيدين .

ترى ماذا حل بى بعد ذلك فافسد حياتى ، وملأنى بالملل والضيق؟!
لا أظننى أستطيع الاجابة عن ذلك بالضبط . . . ولكن الذى أنكره
جيذا هو أن الملل الذى أصابنى ، والشقاق الذى تخلل حياتنا ، لم
يبدأ الا بعد أن قطننا دارنا الجديدة . . . والتي تصادف وجودها بجوار
دار صاحبى القديم هو وزوجته .

انى لأذكر زيارتهما الأولى لنا . . . وأذكر ذلك البغض الذى
سست به يتدفق من قلبى نحو المرأة الأخرى .
وأذكر ذلك السؤال الأحمق الذى خطر لى . . . ترى ماذا كان
حدث لو لم ألق بالخاتم فى وجهه فى ذلك اليوم . . . وانتهى الأمر
بنا الى الزواج .

ولكن عدت سريعا الى نفسى واستنكرت ذلك الخاطر . انى هانئة
بزواجى فيجب الا افسد حياتى بمثل تلك السخافات .
وحاولت جهدى بعد ذلك الا أكثر من رؤيته . . . والا أجعل من

حطام الذكريات البائدة هيكلا يحجب ما أنا فيه من نعمة ، ويسلبني ما أنا فيه من رضا وقناعة ٠٠٠ ومع ذلك فقد بدأت حياتنا بعد ذلك يعثرها الجمود والسامة ٠

أجل ! ان العلة في نفسي والداء في قلبي ، فهذا الشجار الذي أثرته اليوم ، لم يكن هناك قط ما يدعو اليه ٠٠ فما كانت بي رغبة شديدة في الرحيل عن القاهرة ، لولا أن علمت أن الرجل الآخر سيرحل بامراته الى الاسكندرية ٠٠ ولست أستطيع الجزم بأنى كنت أرغب في الرحيل خلفه ، ولكن من المحقق أننى كنت أكره أن تتمتع المرأة الأخرى بما أنا محرومة منه ٠ يا لى من حمقاء تحطم حياتها بيديها !! يجب على أن أقتلع نفسى من تلك الحشائش الدخيلة التى تحاول أن تفسد على زهرة حياتى ٠٠ يجب على أن أشعر بالقناعة والرضا ، وأن أسعد بزوجى العزيز ٠

وهنا أحسست برغبة فى النوم ٠٠ فتركت الأريكة ، واستلقيت على الفراش ، ورحت فى سبات عميق ٠٠

ورأيت فيما يرى النائم أنى قد أحسست أن بالباب ضجة وضوضاء ، وأنى قد قفزت من فراشى فزعة خائفة ٠٠ وتملكنى خوف شديد وشعرت كأن يدا تعتصر قلبي ٠٠ لقد أحسست أن كارثة توشك أن تحل بى ٠٠ وكدت أتنبأ بما حدث قبل أن أراه ٠ واندفعت الى الباب ، فأبصرت رجالا يحملون جثة قد غطيت بملاءة بيضاء ٠٠ وأخذوا يقتربون منى قليلا ، فبدرت منى صرخة فزع ، ولم أعد أبصر أمامى شيئا ، وسقطت مغشيا على ، فقد كانت الصدمة أقوى من أن يحتملها بشر ٠

ووجدتنى بعد ذلك وحيدة فى الحياة ، كريحة فى مهب ريح عاصفة ، وأنى قد فقدت زوجى الذى مسح بحنانه سابق دمعتى ، وأزال بعطفه قديم لوعتى ٠٠ ولكنى عدت فبطرت عليه ٠٠ وكفرت

بنعمته ، وأخذت أنفصر - بسخافاتى - حياته وحياتى .

ومرت الأيام وأنا أحس فى محنتى بوحشة شديدة .. وتلفت
حولى فلم أجد سوى صاحبى القديم يمد يده فى رفق ليعيننى على
السير فى الحياة . ويعرض على فى صمت عطفه وحبه ، ولم أستطع
أن أرفض ، فقد كنت دائما أحس بضعف أمامه ، ولم يكن هناك أسهل
من تركى تلك الذكريات القديمة تندفع الى رأسى لكى ألين له واجيبه
الى كل ما يطلب .

وأخيرا انتهى الأمر به الى الانفصال عن امرأته واعادتها الى
بلدتها ، وبذلك خلا لنا الجو .. فأسرعنا باقتناص الفرصة التى
أضعناها منذ سنين خلت ، وتم الزواج .

وكنت أحس بالزهو عندما أرى زوجى محط الأبصار ، وأعلم
أنه ملكى أنا وحدى .. لقد كان حافظا رونقه وفتنته .. تماما كما
كان يلقي علينا محاضراته . وكنا لا نفعل شيئا الا أن نجدق فى وجهه .
وكانت حياتى الجديدة ، حياة ضجيج ومرح .. ملأى بالولائم
والحفلات ، والنساء والرجال ، واستسغت الضجيج فى يادى
الأمر . ولكنى بدأت أحس بالقلق منه ، وأخذت أشعر بالغيرة
تتملكنى من هؤلاء النسوة اللاتى يتطلعن الى زوجى ويحطن به

وخيل الى بعد ذلك أن حبه لى قد فقد الكثير من حدته .. وأنى
لم أعد لديه أكثر من متاع قديم ، وأنه دائم البحث عن متعة بين هؤلاء
النساء اللاتى يحطن به هنا وهناك . وتذرعن بالصبر ، فقد كنت
أشعر أنى ما زلت أحبه .. وقلت لنفسى ان من الخطأ أن أضيق عليه
الخنق ما دامت المسألة لا تعدو اللهو البرىء .. حتى وجدته ذات
يوم عقب وليمة أقمنها لبعض الأصدقاء وقد احتضن احدى
الصديقات بمنأى عن الأبصار

وكتمت ثورتى فى نفسى . ولم أخبره أنى رأيته .. حتى كنا فى

ذات يوم وقد اخذ يعنفنى لأنى لم أنفذ بعض أوامره ، وهنا ثارت
ثائرتى ، فقد أحسست أنى قد أصبحت عنده لا أزيد على خادمة ،
وبدأت أقارن فى نفسى بينه وبين زوجى الأول ، وبين حياتى اليوم
وحياتى الماضية .

وصحت به وأخبرته أننى قد برمت بالعيش معه ، وأنى أعلم كل
أفعاله الشائنة ، وأنه مخلوق أنانى لا يرى غير نفسه . . . وأنى لا أندم
الآن على شىء كندمى على أننى لم أقدر زوجى الأول حق قدره .
ورأيت يبتسم قائلاً فى سخرية :

— أيتها الحمقاء . . كفى هذا ، فأنا أعلم أنك لو أعطيت الفرصة
مرة أخرى لما اخترت سوى . . . وعلى أية حال لا داعى للمقارنة ،
لأنه لا محل لها ، فأنا حى وهو ميت .

وهنا أبصرت بشبح زوجى الراحل وقد قام بينى وبينه وأخذ
يقترب منى فى سكون ودعة وقد علت ثفتيه ابتسامته اللطيفة
الهادئة ، فلم أتمالك نفسى أن ركعت أمامه وهتقت به :
— انى أريدك . . لا تذهب انى فى حاجة اليك . . انى لا أطيق
الحياة بعيدة عنك . . انى لا أريد ذلك الرجل . . لا أريده .

ولكن الشبح أخذ يتلاشى فى هدوء حتى اختفى ، ولم يبق أمامى
سوى الرجل الأنانى يبتسم ابتسامته الصفراء . . قارتميت على
الأرض ناشجة باكية .

وهنا أحسست بيد تهزنى هذا عنيفا . ففتحت عينى فإذا الخادمة
توقظنى وهى تصيح بى :

— استيقظى يا سيدتى . . ما بالك تبكين ؟

ونظرت الى الخادمة فى دهشة وسألتها عن سيدها فأخبرتني أنه
لم يحضر بعد من عمله . . وتنفس الصعداء ، فقد علمت أن كل ما مر
بى من موت وزوجى ، وزواجى بصاحبى الأول لم يكن الا حلما ، وأن

زوجي العزيز المحبوب لم يمسه سرى ، فاقسمت في نفسي أن أجعل
من ذلك الحلم عبرة وموعظة ٠٠ وألا أضر وسعا في سبيل استعاده .
ونهضت من الفراش وطلبت من الخادمة أن تنصرف الى عملها ،
ولكنها لم تكذ تخطو خطوة واحدة حتى سمعت بالباب ضجيجا ،
وأحسست بقشعريرة تسرى في جسدي .

يا لله ٠٠ لشد ما كانت تشبه هذه الضوضاء والصخب ذلك الشيء
الذي رأيته في الحلم ٠٠ أترى الحلم سيتكرر مرة أخرى ؟ أتراني
ما زلت نائمة ؟ أجل اننى في حلم ، لا شك في حلم .

واندفعت الى الباب فرأيت الرجال يحملون الجسد ، وقد لف
في الملاءة البيضاء ، ولم أتمالك أن صرخت في فزع :

— انه حلم ٠٠ انه حلم .

وصمعت المرأة ثم نظرت الى نظرات حزينة ، وقالت في صوت
اشبه بالأنين :

— انى أنتظر عودته يا سيدى ٠٠ اليس ما رأيته حلما ؟ ! أولم
أزل نائمة ؟ !

وقفز الى ناظرى منظر ذلك الرجل الذى رأيته يعبر الطريق في
اطراق ووجوم ، وقد فاجأته احدى العربات المسرعة فطوته تحت
عجلاتيها وتركته أشلاء محطمة

وأدبرت وجهى لأخفى ما اعتراه من حزن وأسى ، وقلت في صوت
خافت :

— أجل يا سيدتى انه سيعود . لقد كان كل ما رأيته حلما . انك
قطعا ما زلت نائمة .

امراة محرومة

هذه مذكرات امراة مجنونة ٠٠ أو على الأصح ٠٠ امراة محرومة حاولت أن تعوض نفسها عن ذلك الحرمان الذي أصابها به الحياة ٠ فنجحت في ذلك الى أبعد حد ٠٠ وإن كانت لم تسلم من أن يتهمها الناس بالجنون ٠٠ ولكن ماذا يضيرها أن يقولوا عنها مجنونة ٠٠ وإن كانت قد استطاعت أن تمنح نفسها ما قد حرمتها الحياة اياه ٠

ولقد لمحت المرأة مرة أو مرتين ٠٠ وهي حبيسة في دارها ٠٠ في شرودها وذهولها ٠٠ ونحولها وذبولها ٠٠ فلم أشك قط في أنها لا يمكن أن تكون الا مجنونة ٠٠ ثم أنبئت بعد ذلك بوفاتها ٠٠ فلم يدهشني النبأ ٠٠ فقد كانت أقرب الى الأموات منها الى الأحياء ٠٠ حتى لقد خيل الى أنها هيكل أو شبح ٠٠ ثم استطعت بعد ذلك - بطريقة ما - أن أطلع على مذكرات اعتادت أن تكتبها من حين لآخر ٠٠ وأدهشني أن تكتب المرأة مذكرات لها ٠٠ وأقبلت على قراءتها بلهفة شديدة ٠٠ فقد كان بي شوق الى أن أقرأ كتابة مجنون ٠٠ وخاصة هذه المرأة ٠٠ إذ كنت أود أن أعرف فيم كان ذهولها وشرودها ٠٠ وكيف كانت طريقة تفكيرها ٠

وأخيرا انتهيت من قراءة المذكرات .. فلم أحاول أن أبرى المرأة من الجنون .. حتى لا أثير جدلا .. ولكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل .. ما هو الجنون ؟ وما هو الحد الفاصل بين العاقل والمجنون ؟ .

ألم يحس أحدكم ذات مرة بذلك الألم الذى ينتابه عندما يشعر بعجز أمام شخص قوى يحاول إيذاؤه وهو لا يملك أن يرد الأذى ؟ .. ثم ألم يحس بألمه يزول وغضبه ينفثىء عندما يخلو الى نفسه ، فيتصور أنه قد حطم ذلك الشخص القوى ورد عن نفسه ذلك الأذى ؟ أجل .. أولم يحس بالكثير من الراحة لجرد ذلك التصور ؟

ألم يحاول أحدكم عندما يحرم متعة من المتع ، أو لذة من اللذات أن يتلمسها عن طريق الخيال ؟ ! ألم يعجز أحدكم ذات مرة عن نيل امرأة جذبه اغراؤها .. فلجا الى الخيال لينالها فيه .. وأحسن فى ذلك بالكثير من الرضاء ؟

هل اتهم نفسه حينذاك .. أو اتهمه أحد .. بأنه مجنون ؟ اذا قلم نتهم هذه المرأة بالجنون وهى لم تفعل أكثر مما يفعله امرؤ حاول أن يتلمس متعته عن طريق الخيال .. ؟

على أية حال .. مجنونة كانت أم غير مجنونة .. اليكم مذكراتها فاقراوها وقولوا ما شئتم .. فما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها :
• خمسة وثلاثون عاما ؟ يا للسنين التى تمر فلا تترك لى سوى الألم ، ولا تخلف لى غير الوحشة والفراغ .. أية حياة تلك التى أحيائها .. ما أشبهنى بسائحة فى بيداء مقفرة جرداء .. لا ماء فيها ولا رواء ، ولا ظل ولا ثمر .. كلها سامة فى سامة وملل فى ملل .. لا أبصر سوى الأمل السرابى ، واللمحات الكاذبة .

انى أنتظر وأنتظر .. وأحس بالعمر يتسرب ، والأعوام تولى متسللة .. فتتملكنى لوعة .. ويغشانى أسى اليم .. ولكنى أظهار

بالرضا والقناعة .. وماذا أستطيع غير ذلك ، وأنا لا أملك سوى

التمنى والانتظار .

انى امرأة محرومة .. محرومة من الشيء الذى خلقت لأجله ،

محرومة من نعمة الحياة التى تتوق اليها نفس كل أنثى . محرومة

من الزوج والبنين .. محرومة من كل شيء الا الفراغ والوحدة !

ومع ذلك فلا يسعنى سوى الصبر وادعاء السعادة ، خشية

السخرية ، وأنا التى لو كان الأمر بيدها لصاحت بكل ما فى صدرها

من لوعة مكبوتة : « أريد زوجا .. أريد بنين ! » .

خمسة وثلاثون عاما .. مرت ثقيلة بطيئة .. فما وهبت لى

الا زيادة فى العمر ، وزيادة فى الشعور بالحرمان .. انى لأنظر فى

المرأة فأرى هبتها جليلة فى وجهى .. ذبول ونحول وشحوب .

لقد مللت الحياة .. ومللت العمل .. ما أسخف أولئك الذين

يظنون أن المرأة يغنيها العمل عن الزواج .. هم يظنون أن الزواج

وسيلة للعيش .. أو مورد للرزق .. ما أشد حماقتهم ! لقد كرهت

ضجيج الحياة . وضجيج العمل .. فهو ضجيج أجوف كالطبل ،

قد خلا من موسيقى الالف وتغريد البنين . انى أحس بالرغبة فى أن

أستريح من حياتى برهة .. انى أتوق الى شيء من التغيير أيا كان

كم سرنى أن أنتقل الى هذه الدار النائية فى إحدى الضواحي

لا شك أن الصيف فيها سيكون خيرا منه فى جوف المدينة ، ولا شك

انى سأجد تسلية فى حديقتها الواسعة .. انها تحتاج الى كثير من

العناية والتنسيق .. ثم ان أجرها اقل كثيرا من أجر الطابق الضيق

الذى كنت أقطنه فى وسط المدينة .. فهى من تلك الدور التى يعرض

عنها السكان فتظل خالية .. لا لشيء الا لمجرد ما يشيعه عنها الناس

من أنها « مسكونة » . وما تجود به خيالاتهم عما رأوه فيها من جن

وما صادفوه من أرواح وأشباح .

ولم أتردد برهة فى الانتقال إليها ٠٠ وقلت لنفسى ضاحكة : من
يدرى عسائى أن أجد فى الجن والأرواح ما يؤنس وحدتى ٠٠ ويذهب
وحدتى ٠

وسرتنى حياتى فى الدار الجديدة ٠٠ فقد أحسست بشيء من
التغير ، وخاصة أننى قد بدأت عطلة الصيف ٠٠ فصممت على أن
أتمتع بحياة جديدة ٠٠ وأن أنعم بالحديقة والهواء ٠٠ والا أفعل
شيئاً سوى النوم والقراءة ٠

ومر الأسبوع الأول وأنا منهمكة مع البواب وامراته فى تنظيف
الدار من تلك الأتربة المتراكمة ٠٠ وفى تنسيق الحديقة وإزالة
الأعشاب والحشائش ٠٠ حتى ذهب عنها ذلك المنظر الموحش الذى
كانت تبدو به ٠

ولا أستطيع أن أنكر ذلك الشعور بالرهبة الذى كان يملكنى فى
بادئ الأمر ٠٠ عندما كنت أذهب الى الفراش بعد أن أطفىء النور
٠٠ أو عندما أسمع فرقعة هينة أو صوتاً يصدر من هنا أو من هناك
من تلك الأصوات التى لا يخلو منها أى بيت ٠٠ كصوت نافذة يغلقها
الهواء ٠٠ أو قطعة تقفز فى الحديقة أو تمشى على السطح ٠٠ ولكن
الرهبة أخذت تزول على مر الأيام ، وحل محلها اطمئنان الى كل
ما فى الدار ٠

وفى ذات يوم جلست فى ركن ظليل بالحديقة ٠٠ وأخذت أتسلى
بقراءة إحدى القصص ، وقد جلست أمامى امرأة البواب ترتق بعض
الثياب ٠٠ وأجسست بتعب من القراءة فألقيت بالكتاب جانبا ٠٠
وتشاءبت فى كسل ٠٠ وبدأت أجادب المرأة أطراف الحديث ٠٠ حتى
جرنا الحديث الى ذكر تلك الاشاعة التى يطلقها الناس على الدار
وما يرجفون به من أنها « مسكونة » ٠٠ وكيف تسبب ذلك فى أن
تمكث الدار مهجورة طوال تلك المدة ، وقالت المرأة :

— أنا لا أنكر يا سيدتى أن هناك دورا « مسكونة » ، ولكن الواقع أن هذه الدار بالذات مظلومة بين هذه الدور ، لأنى لم أر فيها شيئا قط ، وكل ما سمعته عنها قصة قديمة لست أدري مداها من الصحة ، وهى أن صاحبها الأول قد شيدها لتكون سكنا له ولزوجته الجميلة المحبوبة ، وأن حياتهما كانت نموذجا لحياة هادئة ، وقد زادت سعادتهما بذلك الطفل الجميل الذى أنجباه والذى نما وملا البيت تغريدا وترنيدا ، وفى ذات يوم غابت الزوجة عن البيت ، ثم اكتشف الرجل أنها فرت مع عشيق لها تعودت أن تذهب إليه فى غفلة منه ، وكاد الرجل يصعق ، ولكنه تجلد وتمالك ، ووجد فى ولده العزاء كل العزاء ، وسرعان ما شفى الله جرحه وأذهب لوعته . وبدأ يجد السعادة فى حياته مع ابنه ، وأخذ يكرس لتربيته والعناية به كل وقته ، حتى كان ذات يوم وقد جلس الرجل فى الحديقة يقرأ ، فسمع فجأة صوت سقوط جسم يصطدم بالأرض وصرخة مدوية تشق السكون المخيم ، وقفز من مكانه كمن لدغته عقرب . فوجد الصبى قد هوى من الشرفة وهو يلهو ، فدق عنقه ومات لساعته .

وهجر الرجل الحزين الدار فلم يعد إليها قط ، ولا يدري أحد ما حل به بعد ذلك . . . ربما قد جن . . . وربما قد انتحر . . . إنها قصة قديمة .

وانتهت المرأة من قصتها . التى لا تدري هى مداها من الصحة ، والتى قد تكون محض خرافة ، ومع ذلك فقد انتابنى من سماعها شعور بالحزن عميق ، وأحسست بعطف شديد على الرجل الذى ربما لم يكن له وجود الا فى خيال المرأة ، أو فى خيال من قص عليها القصة .

ولا أدري ما الذى جعل القصة تتجسم فى مخيلتى ، ولا أدري ما الذى جعلنى أزج بنفسى بين أبطالها ، فأقارن بينى وبين الزوج

الخائنة التى وهبت لها الحياة كل ما حرمتنى اياه .. وهبت لها الزوج الوفى الأمين ، والابن الذى ائلف عليه .. فركلت كل هذا بقدمها ، وفرت من عشها لا تلوى على شيء . اترانى لو كنت مكانها ، اكننت افعل ما فعلت ؟ وتخيلت الرجل امامى يعدو فى الحديقة ضاحكا خلف الصبى .. وتخيلت انهما زوجى وابنى ، فأحسست بنشوة عجيبة ، وقلت لنفسى : ان المرأة الهاربة لا شك بلهاء مخبولة ، كافرة بنعمة الله .

وفى هذه الليلة بدأت أحس أول تغير يطرأ على الدار ، وخيل الى انى أسمع وقع اقدام تسير فى الحجرات .. وأحسست بخوف شديد ، ولكنى وجدت الحجرات خالية فلم أشك اننى واهمة . ومرت الأيام ، فازداد شعورى بالأصوات والهمسات حتى كانت تمر بى لحظات لا أشك فى خلالها ان هناك اشخاصا غيرى يتحركون فى الدار . ولكنى لا أبصرهم ، وفى ذات ليلة جلست اقرا قبل النوم ، وسمعت الأصوات واضحة تمام الوضوح كأن أصحابها يجلسون فى الحجرة المجاورة ! .

وكان الصوت صوت طفل ورجل . وسمعت الطفل يقول : « غن لى أبوح .. يا أبوح » .
وأجابه الرجل متسائلا : « ثم تنام ؟ » .
- أجل ...

ويدأ الرجل يغنى « أبوح يا أبوح كلب العرب مذبوح » .
وصاح الطفل فجأة متسائلا : « ومن الذى ذبحه ؟ » .
وتردد الرجل برهة قبل أن يجيب فى حيرة : « لقد وجدوه هكذا مذبوحا .. ولم يعثروا حتى الآن على القاتل » .
ورغم ما أصابنى من خوف وقتذاك لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك بصوت مرتفع .. وخيل الى أن الصوت قد وصل الى الطفل

والرجل ٠٠ فقد كفا عن الحديث ٠٠ وتسللت الى الغرفة المجاورة فلم أجد بها أحدا ! ٠

ومنذ ذلك الحين ازداد يقينى بوجود الرجل والطفل ٠٠ وبدأت أحس بهما فى كل مكان من الدار ٠٠ وأخذت أنصت الى تلك الأحاديث التى تدور بينهما دون أن أرسل صوتا أو حركة حتى لا يكفا عن الحديث ٠٠ فقد كنت أحس من وجودهما بنشوة عجيبة ، مشوبة بشيء من الخوف ٠

وخيل الى أنى قد بدأت لعبة خطيرة ٠٠ لعبة لم يحاولها أحد سواى ٠٠ قد يكون الطرف الآخر فيها من صنع الوهم ، ولم أجد ما يمنع من أن أستمع فى اللعبة ، ما دمت أحس منها بمتعة ، ولكنى صممت على أن أحيط نفسى بالكتمان وألا أنبئ أحدا بتلك الأشباح التى أحس بحركاتها وأسمع أصواتها ٠٠ فقد خشيت أن اتهم بالجنون ٠٠ على أنى لم أكن فى يوم ما أوفر عقلا منى الآن ٠

وبدأت أحاول أن أبصر الرجل وابنه ، فما كنت أسمع همسا أو صوتا حتى أتسلل فى اتجاهه . ولكنى كنت لا أرى شيئا ، ومع ذلك فقد كنت واثقة من وجودهما ٠٠ أجل ٠٠ من المحال أن يكونا غير كائنين ٠

وأستيقظت ذات صباح على صوت أشبه بصوت دراجة صغيرة من دراجات الأطفال ذات العجلات الثلاث تتحرك على أرض الصالة ، فمددت رأسى قليلا لأبصر الصالة من خلال الباب ، فرايت عجبا ٠

لقد كان الطفل هناك ٠٠ بدمه ولحمه ٠٠ ووجنتيه المتوردتين وشعره الأصفر المدلى على جبينه ، وشعرت بغبطة شديدة ووجدتني أناديه بصوت كالهمس . ولم يبد عليه أنه سمعنى ، ولكنه اختفى مرة واحدة ٠٠ أجل لقد اختفى ، دون أن أعرف كيف اختفى ، لقد كان هناك منذ ثانية ٠٠ وفى الثانية التى تلتها لم يكن هناك ٠٠ !

وفى ذلك اليوم طردت الخادمة ، فقد رغبت ان اكون فى الدار وحيدة ، ثم رأيت كثيرا بعد ذلك يروح ويغدو فى الدار . . . يضحك تارة ويصيح أخرى . . . وبدأ يعبت بأثاث الدار ، ويقلب المقاعد ليتخذ منها (حميرا) يمتطيها .

ولم يكن الطفل يرانى أو يحس وجودى ، ولم يكن صوتى يصل الى سمعه ، ومع ذلك فقد أشعر أنه أصبح قطعة منى ولم أحاول أن اترك الدار بعد ذلك لحظة واحدة أو أقابل أحدا فقد سرتنى الحياة مع الطفل وأبيه ، وان كنت لم أبصر أباه بعد .

وكنت أتهرب من رؤية البواب وزوجته ، ومنعت البستاني من أن يباشر عمله فى الحديقة ، فقد كان الطفل كثيرا ما يلهو بعمل بيوت من الرمل فيها ، وكنت أكره أن يراه الناس . وفى ذات يوم أقبلت على امرأة البواب ورأيتها تنظر الى نظرات بها كثير من الرأفة والحزن . وأنباتنى المرأة أننى قد هزلت كثيرا وأننى يجب على ألا أسجن نفسى فى الدار على هذه الحال .

وشكرت المرأة وأنباتها فى اقتضاب انى أحس ميلا الى الوحدة ، وأنى لا أرغب فى الخروج ، وتركتنى وهى تهز رأسها فى دهشة وحيرة .

ولم تكد تنصرف حتى قمت الى المرأة ، وكانت هذه أول مرة - منذ بدأت أنهمك فى حياتى الجديدة - أقف فيها أمام المرأة ، وراعتنى تلك الصورة التى أبدو عليها . . . وهالنى ذلك الاصفرار والشحوب . . . وذلك الشعر المهمل الشبيه بشعر امرأة مجنونة ، ومددت يدي الى المشط لأعيد تمشيطة وتصفيفه ، ونظرت فى المرأة فلم أجدنى وحيدة !

أجل لقد أبصرته لأول مرة ، وقد وقف بجوارى يمشط شعره هو الآخر ، وقد بدا حلو التقاطيع ، جذاب الملامح ، طويل القامة ، متين

البنيان ، وأحسست بفرحة لا توصف ، ثم التفت اليه فلم أجد شيئا ،
وأعدت النظر الى المرأة فوجدت الصورة قد ذهبت أيضا .

ثم اعتدت أن أبصره بعد ذلك .. هو وابنه . ووجدتني أكن لهما
حبا عجيبا . أجل ! لقد أحببت هذين « الشبه كائنين » أكثر مما
أحببت أى « كائن » فى هذه الحياة .

وحاولت أن أتحدث اليهما .. ولكنهما لم يسمعاني .. وحاولت
أن أنظر فى أعينهما فلم يبصرانى .. وعندما كنت أتقدم لالمسهما
كانا يتطايران فى الهواء .

وحدث ذات يوم وقد جلست فى إحدى الحجرات أن رأيت الطفل
يدخل الى الشرفة ويمد رأسه من فوق الحاجز . وتذكرت القصة التى
سمعتها من امرأة البواب ، وكيف سقط الطفل من الشرفة فدق عنقه
.. فصحت به ناهرة اياه كيلا يطل من الشرفة ، وكما كانت دهشتى
شديدة عندما رأيت الصبى يسمع صيحتى فالتفت الى ثم يعود الى
داخل الحجرة .

ومنذ ذلك الوقت والصبى يعرفنى تمام المعرفة ويبصرنى كما
أبصره ، ويزدجر اذا ما زجرته ، ويطيع اذا ما أمرته .. بل أكثر من
ذلك أنه كان ينادينى « ماما » ويا للمتعة العجيبة التى كنت أحس بها
وقتئذ .

ولم تمض فترة قصيرة حتى بدأ الرجل نفسه يحس وجودى
ويرانى كما أراه ، وكان ذلك فى إحدى الأمسيات وقد جلس فى
الحديقة فى سكون الليل ، وشرذ ذهنه ، فراح فى تفكير عميق .
وخيل الى أنى ألح فى قسماته حزنا ولوعة ، لم أشك فى أنه يفكر
فى امراته الهاربة ، وأحسست نحوه حنينا ، وتمنيت لو استطعت
أن أنسيه اياها ، وأن أعوضه عن حبها بما يخفف من لوعته ويذهب
من حزنه .

ورغم معرفتى أن صوتى لا يمكن أن يصل اليه ، وأننى لو لمستّه .
لتطاير وتحلل . فقد وجدتنى أندفع اليه بقوة الحنان الذى يجيش
فى صدرى . ولست ذراعه . فلم يتطاير فى هذه المرة ، بل انتفض
ورفع الى رأسه فى دهشة .

ومددت يدى الى رأسه اتحسسه برفق ، قرأيته قد استراح الى
وزالت عنه تلك الدهشة . ونظر الى كأننى لست غريبة عنه ، أو كأنى
امراته المحبوبة التى ما فارقته وما هجرته .

وفى الصباح سمعت امرأة البواب تطرق الباب . وترددت برمة
قبل أن أفتح لها ، فقد كنت لا أريد أن أرى أحدا . وكنت أحس
كراهية شديدة للناس . ولكن المرأة المجنونة ألحت فى طرقها ، فقامت
الى الباب غاضبة وسألتها عما تريد ، ونظرت الى المرأة وقد بدا
عليها الفزع كأنما قد أبصرت شيئا مخيفاً ، وتوسلت الى أن أرحم
نفسى وأن أزور طبيبا . ولكنى صحت بها أن تغرب عن وجهى وأغلقت
الباب خلفها بشدة . وعادت المرأة أدراجها ووصل الى صوتها وهى
تقول لزوجها : « مسكينة . . لقد أصبحت مجنونة » .

مجنونة ! أنا مجنونة ؟ أيها الحمقى . . اليكم عنى . أتركونى
حيث أنا . . ماذا يهمنى منكم . . ومن دنياكم . . بعد لحظة أو بعد
يوم . . أو بعد عام . . ستكفون عن الحياة . . وسأكف انا كذلك . .
وبعد حين من الدهر . ستكف الحياة نفسها عن أن تسرى فى هذا
الكون وستصبح كلنا كهؤلاء الذين أعيش معهم والذين أعطونى
ما حرمتونى ومنحونى ما بخلتم به على .

ماذا أخشى ولم أعد بعد محرومة . . ؟ وماذا تفضشون على شرا
من الحرمان الذى كنت قيسه . . هبونى كما تقولون مجنونة ماذا
يضيرنى من الجنون وقد وهب لى ما حرمت . وهب لى الزوج والابن
. . لو كنت حقا مجنونة كما تقولون . . « فأنعم بالجنون وطوبى
للمجانين » . .

امراة.. ورماد

الرماد هو ذلك الشيء البارد الخامد الذي يتخلف عن جعة كانت تتأجج بالنيران وتسطع بالضوء .. وظل من حولها يجدون فيها دفئا وهداية .. وكلما انبعثت منها حرارة أو شع منها ضياء .. خلف مكانه ذلك الشيء - أو الأشياء - الذي نسميه رمادا . وهكذا تظل الجعة تعطى عصارة قلبها وتهب خلاصة روحها دون أن تسترد مقابلا سوى الخمود لنفسها والرضا لمن حولها .. وهكذا تستبدل بالحياة فناء ، وبالضوء ظلمة .. وتعربها الأيام .. وهي تتضاءل وتتضاءل .. حتى يحتويها الليل ذات مرة فإذا هي قد أضحت خامدة باردة ، وإذا كل ما فيها قد أضحى رمادا في رماد .

هذا هو الرماد بمعناه المألوف .. أما في هذه القصة ، فهو لا يعنى سوى امرأة .. أو بقايا امرأة .. لشد ما راعنى ذلك الشبه بينها وبين الرماد الذي يتخلف عن الجعة التي وهبت من حولها ضوء نفسها وحرارة قلبها ، ثم تركوها بعد أن خبا منها الضوء وخمدت فيها الحرارة .. كأنها هشيم تذروه الرياح .

كنا صحبة من الخلان نتسامر فى منتدى عام ، وعرج بنا الحديث على ذكر البطولة والأبطال ، وذكر أحدنا ما قرأه عن « توماس كارليل » من وضع البطل فى صورة اله وفى صورة نبي وفى صورة قائد ٠٠ فسمعت آخر يقاطعه :

— هل تحدث كارليل عن البطل فى صورة خياطة ؟

ونظر الى المتحدث شزرا وقال هازنا :

— اتهزل ؟

ولكن الآخر أجابه فى دهشة :

— كلا ٠٠ ليس فى قولى شئ من الهزل ، وأقسم أن كارليل

لو عاش حتى سمع قصة هذه الخياطة ، لما توانى عن أن يضيفها الى قائمة أبطاله .

وصمت لحظة حتى تطلعنا اليه بأبصارنا وأصغنا له ٠٠ ثم بدأ الحديث :

— هى مدموازيل ايرين ٠٠ وقد رايتها لأول مرة عندما كنت خاطبا ، وقد رافقت خطيبتي اليها لقياس بعض البروفات ٠٠ وأقول الحق ان مرأها قد خذلنى خذلانا شديدا ٠٠ فما كنت أتوقع قط أن أراها كما رأيت ٠٠ اذ كان الاسم ٠٠ « مدموازيل » ٠٠ يوحى الى بانى سارى فتاة جميلة لا تقل جمالا بأية حال عن سميتها « مدام ايرين » ، بائعة العطور ولكننى لم أكد أبصرها ، حتى همست فى أذن خطيبتي فى دهشة : « أهذه مدموازيل ؟ ! » ٠٠ وكان لى العذر ، فقد رأيت أمامى امرأة شمطاء ، وخط الشيب شعرها ، وملأت التجماعيد وجهها ، وبدت العروق خضراء بارزة فى يديها !

وتحدثت الينا ، فوجدتها لطيفة المجالسة ، حلوة الحديث ، لا يبارح السرور وجهها ، ولا تفارق البسمة شفثيها ، فهى مثل لامرأة قريرة العين ، مغتبطة النفس .

وترددت عليها بعد ذلك بضع مرات مع خطيبتى ٠٠ فزادت بيننا
أواصر الصداقة ٠٠ وكنت أحس من فرط رقتها وكرم نفسها ٠٠ أنها
ليست مجرد حائكة ثياب ٠٠ بل أكثر من هذا ٠٠ كنت أراها : امرأة
مهذبة •

وفى ذات يوم - قبيل الزفاف - ذهبت اليها وحيدا لأسألها عما
إذا كان ثوب الزفاف قد تم صنعه ٠٠ فقابلتنى كعادتها هاشة باشة ،
وجلست تتحدث الى ، ثم قالت :

- ستسر عروسك بثوبها أيما سرور . فقد حاولت جهدى أن اتقن
صنعه ، فجاء آية فى الابداع • والواقع أنى لا اتقن شيئا كما اتقن
صنع ثياب الزفاف ٠٠ لأننى أجِد لذة فى صنعها •

وصمتت المرأة ، وبدأ عليها شيء من شرود الذهن ٠٠ ولم أدر
كيف أعلق على قولها ، وإن كان قد جال برأسى أن لذتها فى صنع
ثياب الزفاف شيء طبيعى ، فأغلب ظنى أنها تستعيز بذلك عما
حرمته الأيام أياه ٠٠ وأنها تحبى بها بعض آمال ساورتها قيما - مضى
من العمر ٠٠ ولكن الظروف القاسية لم تجعل منها أكثر من آمال ٠٠
وخيل الى أن تلك اللذة التى تجدها فى صنع ثياب الزفاف - أشبه شىء
بتلك اللذة التى يجدها مصور فقد حبيبته فعكف على رسم صورتها
٠٠ ليستعين بذلك على اطفاء جمرة فى قلبه وحرقة فؤاده •

ورأيت الصمت قد طال ٠٠ فلم أجِد بدا من قول بضع كلمات
أزيل بها شرود المرأة ، فقللت لها مستضحا :

- لا بد أنك قد صنعت منها المئات •

ولكن المرأة لم تضحك ، بل هزت رأسها ببطء وأجابت بصوت
خفيض :

- أجل ٠٠ لقد صنعت المئات ٠٠ وكان أولها ذلك الثوب الذى
ما زال مستقرا دون أن تمتد اليه يد حتى وهت خيوطه ورق نسيجه !

وادهشتنى رنة الحزن التى بدت واضحة فى صوت المرأة وهى التى ما رأيته قط الا مازحة ضاحكة .. وخيل الى انى قد اثرت فى نفسها مرارة نكزى ، ونكأت فى قلبها قرحا ، وادميت جرحا ، وخشيت ان أجيبها بكلمات قد تزيد من لوعتها ، فالتزمت جانب الصمت، خاصة وانى رأيت منها ميلا للفضفضة ، فتركتهما تتحدث .. لعل حديثها يعود بها الى سابق مرحها .

وبدأت المرأة تقص على قصة حياتها .. قالت :

- ثلاثون عاما قد مضت على ذلك الحادث المشؤم .. وكان ذلك فى عام ١٩١٥ وقد حملوا اليها جثة أبى بعد أن دهسته إحدى العربات وهو يحاول انقاذ طفلة تعبر الطريق .. فنجح فى انقاذ الطفلة ولكنه لم ينقذ نفسه .. وانى لاذكر كيف شعرت وقتذاك بالوحدة والوحشة ، وكيف أحسست بالظلمات تكتنفنى من كل جانب ، وأنا أقف بجوار أخوى الصغيرين ولا عائل لهما سوى - ان صبح أن مثلى يمكن أن تكون عائلا - فقد توفيت آمنة منذ بضع سنوات .. وكنت أقوم أنا بنحوى مقام الأم ، ولكنى أحسست بعد ذاك اننى لا بد أن أكون أما وأبا ..

وتحاملت على نفسى وصممت على أن أكون قوية شجاعة .. ولا اظننى كنت أستطيع السير وقتذاك .. لولا تلك القوة الخفية التى كنت أحس بها تشد أزرى .. ، ولولا ذلك الاحساس بأن هناك من يعيننى بحبه ، ويؤمن خوفى ، ويؤنس وحشتى ..

وأذكر كيف التقيت به بعد الكارثة .. وكيف ضمنى اليه فى رفق وحنان وسألنى الزواج ، فانبأته أن لا بد لنا من الانتظار حتى يبلغ الصبى أشده ويستطيع أن يعول نفسه فى الحياة .. ونظر الى دهشا وأنبأنى أنه يستطيع أن يتولى أمرنا جميعا .. ولكنى - رغم أنه لم يكن أحب الى نفسى من تلك الأمنية - لم أكن حمقاء حتى أندفع

معه ، فأحمله عبء زوجة وصبيين ٠٠ اذ كنت أعلم أن دخله المحدود لا يكاد يكفيننا نحن الاثنين ٠٠ وكنت أعلم أن ذلك المبلغ الذى يخصنى من معاش أبى ، والذى كنا فى أشد الحاجة اليه ، سيفقد بمجرد زواجى . فلم أود أن أكون حملاً ينقض ظهره ٠٠ وصممت على أن نتذرع بالصبر حتى أصبح فى غير حاجة الى ما أصيبه من معاش . ورأيت اليأس قد تملك نفسه ولكنى أحسست به يضعنى بين نراعيه ويهمس فى أذنى : سأنتظر ما دمت تريدين ذلك .

ومرت الأيام ، وبدأت أعمل بالتدريج فى حياكة الثياب فقد كنت ماهرة فى صنعها ٠٠ ولقد رأيت مطالب الحياة تتطلب أكثر مما كنت أظن ٠٠ وكنت لا أبخل بشيء قط على الصغيرين : الصبى والصبية ٠٠ وكانت الصبية رقيقة الجسد وفى حاجة الى عناية شديدة ٠٠ وكانت تحتاج من أن لآخر الى زيارة طبيب ، أو شراء دواء . وكنت أرى بالصبى ميلا شديدا الى صنع التماثيل ٠٠ وكنت أبصر فى عينيه شعاع نبوغ وطموح ، فصممت على ألا أجعله يخبو ٠٠ بل تعهدته بالعناية والرعاية ٠٠ ولم أبخل بشراء كل ما يلزمه من أدوات النحت . وأنصرم عاما ١٦ و ١٧ وبلغ الصبى الخامسة عشرة ٠٠ وبلغت الصبية الحادية عشرة ، وكنت أقنع من صاحبى بقاء جميل بين حين وآخر ٠٠ تتمتع فيه بأحلامنا العذبة ٠٠ حتى التقيت به ذات يوم ، فأنبأنى فى سكون أنه سيذهب الى ميدان القتال .

كم اذكر ذلك اليوم ٠٠ انه منقوش فى مخيلتى كأنما حدث بالأمس فقط ٠٠ وهل أستطيع أن أنسى ذلك الدفء الذى أحسست به فى صدره ، وانقاسه التى كانت تلهب وجهى ، وصوته الذى يهمس فى أذنى : كم أنت جميلة ٠٠ وكم أحبك ٠٠ كم أكره أن أترك وحيدة فى هذه الحياة العاصفة ٠٠ كم أود لو احتويتك فى بيت صغير جميل حيث أضعك موضع السيدة وأومئك من خوف وأريحك من غناء !

ولم اكن احس بلهفة الى شىء قدر لهفتى الى ذلك الشىء الذى
همس به قى اذننى ٠٠ ذلك البيت الصغير الجميل الذى يحدثنى عنه ،
والذى سيضعنى فيه موضع السيدة ٠٠ بل لقد كنت ارى السيدة
شيئا كثيرا ٠٠ وكنت احس أنه يكفينى جدا ان اكون موضع الخادمة
٠٠ ما دمت خادمته هو ٠٠ هو وحده ٠

واقترقنا بعد ذلك ٠٠ وبدأت اتلعب التعزية عن فراقه بطريقة
قد تكون عجيبة بعض الشىء ، ولكنها كانت لى خير سلوان ٠٠ لقد
بدأت اصنع لنفسى ثوب زفاف ٠٠ وكنت استرق الساعات فأخلو الى
نفسى وأنهمك فى صنعه ٠٠ وقد تملكتنى نشوة عجيبة وشملنى جو
من الهناءة ممتع لذيق ، لكان للثوب أجنحة تطير به الى عالم الغد
الجميل والمستقبل الحلو ٠٠ فأبصر بنفسى بين أحضانه وتحت
أنفاسه : زوجين سعيدين ٠

وأخيرا انتهت الحرب ٠٠ ودقت نواقيس السلام ٠٠ وعاد الى
سالم ٠

ولم أستطع أن اغالب تلك الدموع التى انهمرت من عينى وقد
احتوانى بين ذراعيه بعد طول غيبة ، ومضت برهة طويلة دون أن
ينبس أحدا بيئت شفة ، وقد وضعت رأسى فوق صدره وأحسست
بأصابعه تتخلل شعرى برفق وهدوء ٠٠ وأخيرا سمعته يهمس :
- لقد طال بنا الانتظار ٠

فأجبت بصوت تفيض منه السعادة :

- أجل ٠٠ وليس بنا من حاجة الى الانتظار بعد ٠

ولم اكن أشك لحظة عندما قلت له ذلك ٠٠ ان هناك ما يستدعى
انتظارنا فقد أتم الصبى دراسته الثانوية ٠٠ وهو يستطيع بعد ذلك
ان يحصل على عمل يعول به نفسه ٠
وعلى ذلك ٠٠ فقد أقبل على الصبى بعد بضعة أيام ٠٠ وجلس

الى ممسكا بيدي برفق بين يديه ، ورفع الى وجهه الهاديء ، وعيناه
تتالقان ببريق الطموح ، وتوحيان الى الناظر اليهما ان صاحبهما
نايغة عبقرى .. ثم سألنى فى هدوء ورقة ان كان يمكنه الالتحاق
بمدرسة الفنون ، حتى يتلقى اصول النحت وحتى يصير مثالا عظيما
فلا يقضى عمره فى عمل مغمور .

ووجعت برهة .. ثم أخبرته انى سأنبئه فى الغد .
وفى المساء التقيت بصاحبى ، فأنبأته بالأمر ، وسألته ، وفى
نفسى لوعة شديدة . ان كان يمكننا الانتظار عاما آخر حتى ينتهى
الحصى من دراسته الأخيرة .

ونظر الى صاحبى فى ذهول ويأس ثم قال :
— عاما آخر ! أتظنين أننا قد كتبنا علينا التضحية فى سبعين
الآخرين ؟ ان العمر اقصر من أن نضيعه عاما فعاما .

ثم غادرنى فى سكون والحزن يفيض من نفسه .
وتعلكتنى اذ ذاك لوعة .. وعصف بى الاسى .. فقد ساءنى ان
أسبب له ذلك الحزن .. وتبينت أنه لو كان الأمر يقتصر على ان
أضحى بنفسى .. لاستطعت احتماله . اما ان أشركه فى تلك
التضحية .. فذلك ما لا أقوى عليه .

عزمت على أن أنبئ الصبى بحقيقة الأمر .. وأن أسأله ان
يقنع الآن بالعمل .. ومع ذلك فقد كنت أحس بالخجل من ان
أقول له ذلك .. ورأيتنى أتهرب من لقائه فى تلك الليلة .

وفى الصباح لم استطع لقاءه ، فقد خرج قبل أن أستيقظ فحمدت
الله لأننى كنت لا أدري كيف تطاوعتى نفسى على أن أصدمه بحديثى
.. وقبيل الظهر رأيته قد عاد الى الدار .. أقبل على ياسما ،
فاحسست بالاكتناب يملؤنى ، فلما تعودت قط ان أرفض له طلبا مهما

كان تافها ٠٠ فكيف بي وأنا أحاول أن أطفئ ذلك الشعاع من
الطموح الذى يضىء نفسه .

ورأيت الصبى قد مد يده الى بحفنة من النقود ٠٠ فسأله دهشة
من اين له بها . فأتبأنى ببساطة أنه قد سمع حديث الأمس وأنه قد
سلم عمله منذ اليوم .

وأحسست برجفة تنتابنى ٠٠ ووجدتنى أسأله هامسة :

— ولكن هذا مبلغ كبير !

وأجابنى برفق وحنان :

— لقد بعث كل ما أملكه من أدوات النحت ، وما لدى من تماثيل

٠٠ حتى أقدمه لك هدية زواجك .

وهنا لم أستطع أن أمنع دمعيتين طفرتا من عيني ، واحتضنت

الصبى ٠٠ وقد أحسست أن توضيحي قد تضاعلت بجانب توضيحه

وأمسكت بالنقود ٠٠ وغادرت الدار ٠٠ فاستعدت للصبى

أدواته ، وصممت على أن يتم دراسته .

وعندما التقيت بصاحبى أنبأته بما فعلت فنظر الى نظرقه الى

مجنونة . وقال فى يأس أنه لن ينتظر أكثر من ذلك ٠٠ ثم انصرف

عنى دون أن يلقي الى كلمة وداع .

وطالت غيبته ٠٠ حتى فوجئت ذات يوم بأن قرأت فى إحدى

الصحف نبأ خطبته ٠٠ وأنه سيتزوج بعد أسبوع !

وفى يوم زواجه أحسست بدافع لا يقاوم يدفعنى الى أن أذهب الى

الكنيسة ، وهناك اندسست بين الناس دون أن يشعر بى أحد ،

وتطلعت بعيني فأبصرت بالعروس وقد ارتدت ثوب الزفاف الذى

طالما حلمت به ٠٠ ونظرت الى الثوب الناصع ، وتذكرت ذلك الثوب

الذى يرقد فى مضجعه ، ثم تسلمت عائدة الى البيت كأننى شبح

يسرى

ومرت الأيام ٠٠ وتزوج الصبي ورحل الى داره ٠٠ ثم تزوجت
الصبية ورحلت الى دارها ، وبقيت وحيدة لا يؤنسني الا ذلك الثوب
الذى صنعته فى غمرة الأحلام ٠

وانى لأجلس الى نفسى أحيانا فأفكر فى مبلغ ما فعلت من
تضحية ٠٠ فلا اكاد أحس أنى فعلت شيئاً ٠٠ فقد تمتعت بالحب فى
زمن الصبا ، وحييت بعد ذلك حياة مستقرة هائلة هادئة ٠٠ فما بت
ليلة على الطوى ، وما استلقت مرة على قارعة الطريق ارتجف من
البرد دون أن يستر جسدى سوى خرق بالية ٠

أجل ٠٠ عندما أفكر فى أولئك الذين يتالمون ويتعذبون ٠٠ أولئك
المساكين الذين شردتهم الحياة فهاموا على وجوههم ٠٠ أولئك الذين
أهلكهم البؤس وأضنتهم المسغبة ٠٠ الذين لم يروا فى دنياهم حسنة
ولا أحسوا متعة ٠٠ عندما أفكر فى اليتامى الذين روعتهم وحشة
الحياة ، والذين عاشوا فيها غرياء لم يرو نفوسهم الصادية عطف
ولا سقى قلوبهم الظامئة حب ولا حنان ٠ عندما أفكر فى أولئك
الضالين الذين أدمى شوك الضلال نفوسهم ، وأحرق جمر الرذيلة
قلوبهم ، الذين لم يذوقوا قط حلاوة الايمان ولا لذة اليقين ٠

عندما أفكر فى كل هؤلاء ، وعندما أقارن نفسى بأولئك الذين
يستشهدون فى سبيل الله وفى سبيل أوطانهم ، أولئك الذين يضحون
بأنفسهم لكى يهيئوا لغيرهم حياة أفضل ٠٠ عندما أقارن نفسى بهم
وأقارن تضحيتى بتضحيتهم أجدنى قد تضاعلت وأجدها قد تضاعلت
٠٠ حتى أحس أنتى لم أفعل شيئاً ٠



وصمتت المرأة ورأيت المرح قد عاد الى وجهها مرة أخرى ، ومع
ذلك فقد أحسست الحزن يملأ نفسى ، وأكبرت فيها تضحيتها ثم

انكارها التضحية ، ووجدتني اشعر باللوعة رغم انها قد حاولت أن
تبدو راضية قانعة ، وتظهر أنها لم تفعل شيئاً .
ونظرت اليها ، والى شعرها الأبيض ووجهها الذى ملأته
التجاعيد ، وتذكرت الجمرة التى وهبت لمن حولها دفعا وهداية ثم
خمدت فأضحت رمادا فى رماد .



وسكت صاحبى ، فقد انتهت قصته .
ولكننى وجدت كهلا كان يجلس بجوارنا ، وكان قد سمع القصة
من أولها الى آخرها ورأيتة يدنو منا وأخذ يقول لصاحبى :
- لشد ما أخطأت الظن يا سيدى ، ان المرأة التى ذكرت قصتها
ليست رمادا ، ولن تكون قط رمادا . . اتعرف الجمرة التى يكسوها
الرماد وما زال جوفها مضيئا مشتعلا ؟ انها جمرة من ذلك النوع . .
يخيل للناس اليها أنها رماد ، وما زال النور يضىء نفسها ، والحرارة
تدق قلبها .

وصمت الرجل ، ثم أشار الى نفسه وقال :
- الرماد هنا . . الرماد هو ذلك الجسد الذى لم يستطع الصبر .
ولم يحتمل التضحية . . ومل الانتظار . . فترك حبيبة العمر وأقبل
على أخرى . . ماتت بعد فترة من الزمان . . ورأى نفسه يسير بعد
ذلك وحيدا . . كالميت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى
لقد كان الرجل هو صاحب المرأة الذى هجرها !
اجل . لقد كان هو . . الرماد . . !

امرأة وظلال

ما فتن الانسان شئ فى هذه الحياة كالظلال ، واعنى بالظلال ،
ظلال الحقائق التى يمر بها المرء ، فتسعده أو تشقيه ، وتضحكه
أو تبكيه .. ثم يطويها الزمن فى مره ، وتناى بها الأيام فى كرما ..
فلا يعود يبصر منها الا ظللا داكنة خلفتها تلك الحقائق بعد أن تآى
بها الزمن .

ينظر المرء الى هذه الظلال فيحس منها بمتعة ، ويفتنه مرآها
كما لم تفتنه الحقائق نفسها التى خلفت هذه الظلال .



وانى لأعرف نوعا من الناس ، قد لا اكون مخطئا اذا سميتهم
هواة ظلال ، وعشاق نكريات ، فهم يعيشون دائما فيما مضى وما
غير .. لا يكادون يحسون بحاضرهم الا اذا طوته الأيام فأصبح
ماضيا ، ولا يشعرون بالمتعة الا بعد أن تصبح نكرى ، ولا يحسون
بلهفة على مباشرة المتع .. ولكن يحسون بلهفة على العيش فى
ظلالها .. واغلب ظنى أن هذه المرأة التى سأسرد قصتها هى واحدة
من هذا النوع الذى نسميه : هواة الظلال .

كان الوقت قبيل الغروب ، وقد مالت الشمس نحو الأفق ،
وأرسلت أشعتها على الأوراق الصغيرة المتكاثفة ، والزهور الحمراء
التي كست أشجار البانسيانس الممتدة على الطريق القائم على إحدى
ضفتي النيل فى الجزيرة ٠٠ فبدت الأشجار كأنها رؤوس براكين
مشتعلة ٠

وفى إحدى الحجرات المطلة على الطريق ٠٠ تسللت الأشعة
الحمراء من بين أوراق شجرة قائمة أمام الدار وتغلقت من خلال
النافذة الواسعة ، فصبغت الحجرة بلون أرجوانى ، وسقطت ظلال
الأوراق على أرض الحجرة وعلى جدرانها وأثاثها ٠٠ وقد بدت فى
سكونها ولونها الداكن ، كأنما قد رسمتها ريشة فنان ، لولا ذلك
الاهتزاز الخفيف الذى تبديه عندما تهب على الأوراق نسمة هادئة
من أنفاس الصيف الناعمة الرقيقة ٠

وعلى أحد المقاعد جلست امرأة ٠٠ ما زال يبدو عليها الكثير
من جمال الصبا ونضارة الشباب ٠٠ وقد مدت ساقها ، ومالت
برأسها الى الوراء ، وسبح بصرها فى الأفق البعيد ٠٠ وبدأ وجهها
من خلال الظلال التى تسللت من النافذة ، وقد علت له لمحة من أسى ،
ومسحة من حزن واكتئاب ٠٠ وأمسكت بين أصابعها بقطعة من
الصوف وأبرتين طويلتين ، ثم تركت يديها تسقطان فى حجرها فى-
كسل واسترخاء ٠٠

وأخذت المرأة تستعيد فى ذهنها ما حدث منذ لحظات ، وتذكرت
كيف تركت تلك المتعة التى كانت تغلف عليها ، تتسرب من بين
أصابعها ٠٠ واكتفت منها بذكريات باهتة تعيش فى ظلالها ، لأنها
تعودت حياة الظلال

تذكرت كيف فاجأها بدخوله عليها ، وكيف أنبأها فى صوت
هامس متلف أن امرأته قد ماتت ٠٠ لقد تركها مشدوهة مأخوذة ٠٠

فهي لم تكن تتوقع قط أن يعود اليها ولا أن يخبرها أنه قد أضحى حرا طليقا .. وبدا وجهها شاحبا وسقطت يداها على ساقيهما ولم تنبس ببنت شفة .

وأمسك الرجل بيديها بين راحتيه . ثم قال لها فى رفق :

— لم لا تتكلمين ؟ لم هذا الذهول ؟ ترى هل فاجأتك ؟

— وأى مفاجأة !!

— كان يجب على أن أكتب اليك ، ولكنى لم أستطع الانتظار . ولم أكن أفكر فى شيء سوى المجيء اليك ، فقد كنت أبصر بك بعين الوهم جالسة فى مقعدك هذا ، وقد بدا وجهك من خلال الظلال تماما كما يبدو الآن .

ونظرت اليه بعين تائهة ، وذهنها ما زال فى شروده وذهوله ، وحارلت أن تتمالك مشاعرها ، وقالت فى هدوء :

— أجل . لقد فاجأتنى عودتك . كما يفاجأ كل امرئ يبصر بالظلال تتجسم فتعود مرة أخرى حقائق ملموسة . لقد عودت نفسى حياة الوحدة فتعودتها واطمأنت اليها ، وطردت من مخيلتى كل أمل فى عودتك ، وبدأت أشعر بالهدوء والاستقرار .

واقترب منها الرجل وأمسك بوجهها بين كفيه .. وتأمله برهة .. ثم اقترب بشفتيه من شفتيها ، وضغط عليهما ضغطا خفيفا .. ونظر الى عينيها فلم يجد بهما تلك اللهفة المعهودة .. ولم يحس فيهما ذلك الشوق الذى كان ينتظر .. وأحس بالخيبة تملأ نفسه .. هذه هي القبلية التى كان يحلم بها طوال تلك المدة !

وترك وجهها فى سكون ، وعاد فجلس على مقعد قبالتها .. وساد الصمت برهة .. وتحدثت المرأة لتقطع ذلك الصمت فسألته فى غير إكتراث :

— أكان مرضها طويلا ؟

— عشرة أيام .

ثم أردف في صوت يشويه اليأس :

— كنت أظن أن عودتى ستسعدك . . . وأنت ستلقيننى بأحر شوق
وأشد لهفة .

ونظرت المرأة الى الظلال التى تتراقص على أرض الحجرة وقالت
فى صوت هامس كأنما تحدث نفسها :

— انى لا اطمع فى أكثر مما حصلت عليه . . انى قانعة راضية
. . فعندما تعطينا الحياة زهورها يجب أن نكتفى منها بعبيرها
والنظر اليها ، ونتركها تبتعد دون أن نحاول قطعها . . فيبقى عطرها
وسحرها فى رؤوسنا مدى الحياة لأن قطعها ان لم يدم أيدينا فسيرينا
هذه الزهور ذابلة بعد برهة قصيرة ، ويرينا أوراقها تتساقط فى
الثرى وتختلط بأديم الأرض ، ولا نعود نبصر فيما بعد ذلك سحرا
ولا روعة . . أجل . . عندما نبصر أجمل ما فى الحياة فان خيبر
ما نفعله هو أن نقنع بالذكري .

ورفع الرجل وجهه وهز رأسه متسائلا :

— أوتظنين حقا أننا قد ابصرنا أجمل ما فى الحياة ؟

وصمتت المرأة برهة ، وسبحت ببصرها من خلال النافذة وأجابته
كالحالة :

— أجمل ما فى الحياة ؟ ! وأى شيء هناك أجمل من لقائنا أول مرة ؟
وأحس الرجل بنشوة . . لقد بدأ هو الآخر يندفع الى حياة
الظلال !! ووجد نفسه يقول وقد أثملته الذكرى :

— انى لأذكر ذلك اللقاء كأنما حدث بالأمس فقط . . وأنى لأكاد
أبصر وجهك كما أبصره الآن . . ما تغير فيه شيء ولا تبدل . . فانت
انت فتاة الأمس . . امرأة اليوم . . حتى هذه الظلال التى بدا وجهك
من خلالها . . هى هى . . يا لك من امرأة عجيبة ! لقد كانت الظلال

تستهويك دائما • لقد كانت تفتتك وتفتن الناس • كم كنت رائعة
عندما وقع بصرى عليك أول مرة ، وقد بدا وجهك مبسوتا مشرقا ،
من بين أوراق الذرة العريضة الخضراء ، التى ألقت ظلها الداكنة
حول وجهك فزادت فى إشراقه حتى لكأنه بدر قد أطل من خلال السحب
القائمة ، فأشرق فى دياجير « ليل قاتم الأعماق طام » • وأبصرت
فى عينيك تلك النظرات الحاملة المستسلمة ، ورأيت شفقتك الممتلئتين
فى اغراء وفتنة ، المضمومتين فى لين ونضارة •

وعرتنى اذ ذاك هزة ، وانتفضت « كما انتفض العصفور بلله
القطر » • وقلت لنفسى : انها هى •• لقد وجدتتها أخيرا ، حبيبة
العمر التى أعيانى البحث عنها وأضناني الشوق اليها •• واندفعت
اليك فى حمق طائش •• وأمطرتك وإبلا من الأسئلة : من تكونين •
ومن أين ، والى أين •• وعلمت أنك قد أتيت لزيارة عمك فى ضيعته
•• وعدت معك الى القاهرة فى اليوم التالى رغم انى لم أنجز شيئا
مما أتيت من أجله •• ومنذ ذلك اليوم وحياتى قد مسها سحر بدل
كل ما فيها وقلبها رأسا على عقب •

لقد شعرت وقتذاك انى لن أستطيع الحياة بدونك •• لقد وجدت
فيك قطرات الماء التى يصادفها ضال قد شفه الظم فى صحراء
جرداء وأنهكه العدو وراء سراب خداع خلاب • ومع ذلك فلم أكد أمد
يدى الى تلك القطرات لأروى منها غلتى حتى وجدتنى مقيدا مكمما •
أجل لقد كان ثمة حمل يثقل كاهلى وينقبض ظهرى •

كنت متزوجا •• وعلم الله انها ما أسعدتنى مرة واحدة ••
ولكنه كان زواج مال •• وما كنت راغبا فى مال ولا ثروة ، ولكنى
كنت صغيرا وقتذاك •• وكان أبى يراها فرصة العمر • وانتهت
المسألة فى لمح البصر ، ولم أحس حينذاك أنها ستكون قيدا ثقيلا ،
ولم أحاول أن أنظر الى الأمر نظرة جادة •

ومرت بى الأيام ثقيلة مملة ، وبدأت أبحث خارج الدار عن مرفهات
ومسليات . من تلك الأنواع الخفية التى يمكن للإنسان مباشرتها دون
أن تصاب حياته الزوجية بصدع ، أو تحطيم ، حتى صادفتك ، وإذا
بى أمام ملاك نيسيچ وحده . . . أجل لقد كنت شيئا آخر جديدا لم
أصادف مثله من قبل .

وفى ذات يوم عزمت على أن أكون حاسما فى امرى . . . فجابهتها
بالواقع . . . وكنت نصريحا معها كل الصراحة . . . وسألتها الانفصال
. . . فقد كان ذلك خيرا لى ولها . . . ولكنى رايت فى عينيها نظرة
حزينة . . . وأجابتنى فى سكون أنها حامل . . . وأحسست أن اجابتها
سكين مزق قلبى . . . وتركتها دون أن أحير جوابا . . . ولم أحاول أن
أطلب منها الانفصال بعد ذلك ، ولكنى أحس الآن إننى كنت أحمق
وقتذاك . . . ولو تكرر الأمر الآن لأصررت على الانفصال . . . ولتركتها
تذهب هى وم طفلها الى حيث ألقت . . . أجل انى أشعر انى لم أعد بعد
ذلك المثل الذى حاولت أن أكون . . . ان تلك الصخور التى نصطنم
بها فى طريق الحياة تجعلنا أكثر صلابة وخشونة .

وصمت الرجل وساد سكون عميق قطعته المرأة بقولها :
- وكيف حال ابنك ؟

- ابنى ؟ انه لم يكن ابنى فى يوم ما . . . لقد كان ابنها منذ أن خرج
الى هذه الحياة . . . لقد علمته كيف يكرهنى . . . ولذلك لم أكن أهتم به
كثيرا لأنك كنت تملئين جوانحى وتشغلين كل قلبى ورأسى . . .
- ولم لم تحاول الانفصال وقتئذ ؟

- لقد حاولت ذلك مرة أخرى ، ولكنى علمت حينذاك أنك تزوجت ،
فتملكنى اليأس . . . ولم أجد معنى لذلك الانفصال وخاصة أنها كانت
تقوم بواجبها نحو بيتها كما يجب ، وأنها بدأت أيضا تكف عن تلك
المشاحنات التى كانت تثيرها من أجلك . . . على أى حال لقد انتهى

كل ذلك الآن .. وأصبح كلانا حرا طليقا . فهلا يمكننا أن نسعد
بتلك البقية الباقية من حياتنا ؟

ولم تجب المرأة بل نظرت الى تلك الظلال المتراقصة على أرض
الحجرة .. ثم تعتمت :

— من ناحيتى أنا .. لقد تعودت العيش فى الظلال .. ولا أظننى
أستحق أكثر من ذلك .. فقد سرقت رجلا من امرأته .. أو على
الأصح سرقت حبه .

— لا تكونى حمقاء .. انها لم تستطع لحظة واحدة أن تملكه ..
انه لم يكن لها فى يوم من الأيام .. ولو لم تسرقه أنت لسرقه غيرك
.. لقد كان زواجنا زلة الأيام .

— دائما نلوم الأيام ونتهم الحياة ونحن أحق باللوم والاتهام
« نعيب زماننا والعيب فينا » .. أجل ان العيب فينا والخطأ خطؤنا
.. أتذكر ذلك اليوم الذى تزوجت أنا فيه .. لو كان لدى الخلق
المتين والشجاعة الكافية التى تمكننى من المضى فى طريقى حتى
النهاية .. لما أقدمت على ذلك الزواج قط . انى لم أكن أحبه ، وإذا
لم تحب المرأة فخير لها الا تتزوج .. وليتنى كنت لا أحبه فقط بل
كنت أحب سواه . لقد كان خير أنواع الرجال ، وكنت أحترمه وأقدره
.. بل انى شعرت بفجيرة لفقده ، وأحسست بالفرع والوحدة تشملنى
بعد موته . ولكنى مع ذلك لم أكن أحبه ، وكنا نبدو سعيدين فى
الظاهر ولكنه لم يكن سعيدا قط فى باطنه ، اذ لم أستطع أن أعطيه
الشيء الذى يطلبه ، وكان كلانا يعلم ذلك ، ولكننا لم نتحدث عنه
قط . لقد كان خير ما يصلح له فى نظرى هو أن يكون وسيلة
للنسيان .. ولذا كنت أحس اننى جبان وأنى أحاول أن أشرك معى
فى حمل أعبائى مخلوقا لا ننب له .. كان يجب على أن أحمل حبنى
فى قلبى وأسير فى طريقى بشجاعة لا تخيفنى معها الوحدة

ولا يزعجنى أن يدمى الحصا قدمي .. حتى أصل الى نهاية الطريق .
ولكني لم أفعل ولم تفعل أنت أيضا .. فقد كان عليك على الأقل
ما دمت لم تستطع أن تكون زوجا لزوجتك .. أن تكون أبا لابنك .
ولكننا أغمضنا أعيننا عن أخطائنا .. ورمينا الزمن بالخطأ الذي
فينا .

ثم يخيل اليك بعد ذلك أننا نستطيع الآن أن يمسك أحدهنا بيد
الآخر . وتعاود السير في الطريق سويا .. لنحصل على بقية
نصيبنا من السعادة .. لا .. لا .. لا أظن المسألة من السهولة كما
تتخيل ، يجب أن تعود الى ابنك .. فحرام أن تتركه بلا أم ولا أب ..
يجب أن تعوضه كل ما حرمته من حنانك فيما مضى من الزمن ...
يجب أن تكون له وحده .

وطأ الرجل برأسه وأحس لأول مرة بالحنين الى ابنه وقال
لها هامسا :

— وأنت ؟

— لقد قلت لك اننى تعودت العيش في الظلال .
— أيتها الحاملة .. ألا تظنين أن ضوء الشمس قد يكون خيرا من
الظلال ؟

— اننا لم نفعل ما نستحق من أجله أن نعيش في الضوء ، وانى-
لا أكاد أبصر هذه الظلال حتى أحس فيها عزاء وسلوة .
واقترب منها الرجل ولف ذراعه حولها ، ثم رفع رأسها اليه ،
فأبصر في عينيها لأول مرة تلك اللهفة وذلك الشوق .. واقترب
بشفتيه من شفتيها فأحس فيهما حرارة تتأجج ولهيبا يستعر .
وسألها هامسا : « أتصرين على أن أتركك ؟ » .
فهمست مؤكدة : « أجل » .
— على أن أعود اليك بين آونة وأخرى .. ؟

.. أجل !

.. فى ظلمة الليل حيث لا ظلال تتعلقين بأهدابها ، وفى أيام الشتاء
حيث الأوراق متساقطة والشمس غائبة ؟

وهمست المرأة الأخيرة : « أجل .. أجل » .

وغادر الرجل الحجرة وسمعت وقع قدميه يبتعد فى الطريق ..
ثم ساد الصمت وعم السكون .. وهبت نسمة خفيفة من أنفاس
الصيف الهادئة .. فحركت أوراق البانسيانس .. فبدأت الظلال
تهتز وتراقص ، وتغدو وتروح .

وبدا وجه المرأة من خلال الظلال ، وقد كست عينيها سحابة من
دموع ..

يا للمرأة العجيبة .. أتراها . حقا لم ترد أن تنتزع الأب من ابنه
.. كما نزع الزوج من زوجته ؟ أم تراها حقا قد أحست أن الابن
أولى بالرجل منها ، وأنه يجب أن يكون له وحده ؟
أم تراها من هواة الظلال .. وعشاق الذكريات !

امراة غيرى

هذه قصة روتها لى امراة منذ عشرات السنين .. امراة غيرى ..
كملت الغيرة قلبها فعاشرت فى نضال دائم وخوف مستمر .

★ ★ ★

حدثتنى المرأة قالت :

- دعنى أجال بك خلال الماضى البعيد والأيام النائية .. فأريك
كيف كنت وإياها طفلتين عابثتين لاهيتين . لا نكاد نفترق إلا ساعة
تأوى كل منا الى فراشها .

كنا ابنتى عم ، وكانت دورنا متجاورة .. وشبيننا فى الحياة
كئختين .. وكان لنا ابن عم آخر يقاربنا فى السن ، وكنا نتقابل
جميعا فى الصيف حيث نتخذ من رمال الشاطئ مرتعا للهو . ومن
ظهر الموج مطية للعب والمرح .

وانت تعلم يا سيدى ، أن العائلات التى بينها مثل هذا التقارب
والتحاب تحاول دائما أن تربط بين أبنائها بالزواج وهم ما زالوا
فى دور الطفولة ، ولو كان ذلك من باب المزاح . وهكذا نشأنا ونحن
نسمع من آبائنا وأمهاتنا أن ابن عمى سيتزوج من ابنة عمى .

وكنت طفلة لا أكاد أتتيم المسألة وزنا ، وكنت لا أحسن أن ابن عمى يرى لاحداثا فضلا على الأخرى ٠٠ كنا فى نظره سواء ما دمننا نشاركه لهود ولعبه ، وعلى ذلك قلم يكن يهمنى قط أن يقولوا عنه انه زوجها أو زوجى ٠ ومرت السنون ، واستمر الأمر كذلك حتى كنا ذات صيف ٠٠ صيف يحمل فى طياته تبديلا لكل ما بأنفسنا ٠٠ صيف نقلنا من عالم الى عالم ، ومن حياة الى حياة ٠٠ صيف حمل لنا فى حرارته الأنوثة ، وحمل له الفتوة والشباب فالتقى ثلاثتنا ، لا طفلتان وصبى ٠٠ بل فتاتان وشاب ٠

ولست أدرك ما حل بنفسى وقتذاك ، فقد اعترانى ما يعترى كل فتاة عندما تتحول من طفلة الى امرأة ٠٠ من تطور فى الجسد والعقل والقلب والتفكير ٠ ولست أريد أن أسهب فى شرح ذلك التطور ، ولكنى فقط أريد أن أشرح من ناحية معينة ، وهى ما حدث من تبدل فى نظرتى الى ابن عمى وفى احساسى نحوه ٠

ولست أشك أن كل ما حدث بى من تطور قد تركز فى تلك الناحية وأنه قد اتخذها مظهرا واضحا جليا ٠

هذا الصبى اللاهى العايب الذى كنت أعدو خلفه لأقذفه بالحصى وأغمره بالمياه ، والذى كان يمسكنى بين ذراعيه أو يجذبني من شعري فيلقى بى على الأرض ، ويجلس فوقى بيديه وركبتيه ٠٠ دون أن تتحرك فى جارحة ٠٠ هذا الصبى الذى لم أك أرى فيه الا زميل لعب ٠٠ والذى لم أك أعبا قط أن يقال عنه أنه زوج ابنة عمى أو زوج أية كائنة من كانت ، أتدرى كيف أصبحت أراه ؟

عجبا لنا ٠٠ كيف تتبدل فى أعيننا المرئيات بين آونة وأخرى ، ونراها فكانتنا نبصر أشياء أخرى غير التى تعودنا أن نبصرها ٠ نراها فنبهت من سناها وتؤخذ من اشراقها وكأننا ما رأيناها من

قبل ، وما تبدلت هي ، ولكن تبدلت نفوسنا .. وما أشرقت هي
ولكن سرى من نفوسنا اليها ضياء غمرها .
ما ذاك الجفاء الذي أصبحت أحسه نحو ابنة عمى والكراهة الذي
يجيش في صدرى لها ؟

أكان ذلك لأنهم يقولون عنها أنها ستضحى زوجته ؟
هذا القول الذي سمعته من قبل مئات المرات . فما حرك في
قلبي ساكننا ، وما أثار من نفسى اهتماما .

هذا القول قد أضحى الآن يعتصر قلبي اعتصارا .
لقد كنت إذا ما ضم ثلاثتنا مجلس - أنا وهي وهو - لا أكاد أرفع
عنه عنه بصرى ، وكان هو لا يكاد يرفع عنها بصره .
كنت أنصت اليه .. وكان هو ينصت اليها .

لقد كنت لا أحس الا وجوده ، وكان هو لا يحس الا وجودها
أما عن احساسها نحوه فأننى لم أستطع أن أجزم به .
ولم أكن أستطيع أن أتبين من تصرفاتها وتعايير وجهها : مدى
ما تكنه من حب .. فقد كانت تتحدث معه كما تتحدث مع سواه ..
فهى دائما لطيفة المعشر حلوة الحديث ، ولكنها على أية حال لم تكن
قطعا مدلهة فى هواه ، كما كان مدلهة فى هواها ، أو كما كنت مدلهة
فى هواه .

وإنكر أنها قالت لى ذات ليلة « انى استلطفه ، ولكن هل يكفى
الاستلطاف أن يكون باعثا على الزواج ، أم لا بد من الحب ؟ » ..
ولم أجبها ، وإن كانت كل جارحة فى تكاد تصيح « بل لا بد من الحب
.. الحب الذى يضطرم فى صدرى ويتأجج بين جوانحي » .
ومرت الأيام وأنا أكافح حبى .. أحاول أن أخدمه فلا يخدم .
حتى وقعت الواقعة ، وتمت الخطبة ، وتحدد الزواج بعد بضعة
أشهر .

أى يأس عصف بنفسى وقتذاك ؟ لقد كنت وما زلت أمل ، رغم أنه لم يكن هناك وجه للأمل ، وكنت أعلل نفسى . وأقول لها من يدري ؟ قد ترفض هى ، فأنها ليست واثقة من أنها تحبه ، ولكن عندما تمت الخطبة ، ذرت الريح هشيم أملى ، وأحسست بيأس مميت .
آه لو أستطيع الفرار ! ان كل ما حولى موحش كئيب ، ولكن ممن أفر ؟ ونفسى هى العلة ، وقلبي هو الداء .. كم يتمنى الانسان فى تلك الأوقات أن يفر من نفسه !

ولكنى كنت أعلم أنه لا سبيل الى الفرار ، فهزيمة القلب لا علاج لها ! لا الصبر والاحتمال .. ويجب أن ننتظر حتى يبرئ الزمن .
دائما ..

أجل ، يا سيدى .. ما كان أمامى الا التذرع بالصبر ومحاولة النسيان ..

ومرت أيام الخطبة وهو يبدو سعيدا هائنا كأسعد ما يكون انسان تحققت أحلامه .. وبلغ أمانيه ..
أما هى .. فما كانت قط كذلك ، لقد كان بها شيء من الشرود .. وكان هناك ما يشغل ذهنها ، أو كأنها حائرة تائهة لا تستقر نفسها على قرار ..

وفى ذات يوم ذهبت لزيارتها ودلفت الى حجرتها فوجدتها تبكى . وفوجئت بوجودى ، وكفكت دمعها وأنبأتنى أنها متعبة الأعصاب ، ولا شيء أكثر من ذلك .. ولكننى كنت أعلم سبب بكائها .. أنه وحدى التى أستطيع أن أعلم .. أنها لا تحبه ..

وأنا يا سيدى .. أنا التى كنت أتمنى لو أدمى قدمى شوك القتاد ، وأحرق جسدى جمر الغضى .. حتى أصل اليه لأفتديه بعمرى ، كنت لا أجسر أن أقول انى أحبه
يا للتناقض العجيب ! لقد كانت تذرف دمع عينيها لأنها ستزوجه

بينما كنت أبكى بدم قلبي لأنى محرومة منه . فلا هى تجسر أن تقول انها لا تحبه ، ولا أنا أجرو أن أقول انى أحبه .
ومضى اسبوع وكنت أجلس ذات صباح فى حديقة الدار عندما لمحته يقبل على وقد بدت على أساريره مسحة هم وأسى وكان فى مشيته بطة وثناقل كأنه ينوء بعبء أثقل ظهره . وجلس قبالتى وأحسست بضربات قلبي تشتد وبانفاسى تتلاحق .
وسادت فترة صمت كان هو يحرق خلالها أمامه فى ذهول وشروء ، دون أن ينظر الى ، وأخيرا قال :

— اتى أريد منك معروفا لن أنساه مدى الحياة .

ولم أتكلم . فقد كانت كل جارحة فى تكاد تنطق « ليت لى فوق الضنى ما أوجعك » .

وأنبانى بصوت خفيض بانس أن الخطبة قد فسخت لأنها تقول انها قد تسرعت فى الأمر . وسألنى باعتبارى صديقة لها أن أحاول التأثير عليها وردھا الى وعيها فلا شك أن كل ما بها ليس الا نوبة طيش .

وحاولت أن أخفف لوعته فقلت له انى سأفعل جهدى رحماك ربي . . ! أنا التى أبذل جهدى حتى أردھا اليه ! أنا التى ما تمنيت شيئا قدر أن أبعدھا عنه ! ولكن ما الفائدة فى أن تبعد هى وهو ما زال متعلقا بها ، وما الفائدة فى أن أوصل فى حبه وهو لا يرى منى الا واسطة اقربھا اليه .

وعلى ذلك فقد حاولت جهدى أن أقربه اليها وأن أعيد المياه الى مجاريها . أو هذا على الأقل ما صممت عليه . ولكنها لم تتح لى الفرصة فلقد سافرت فى اليوم التالى مع أبيها وتركته فى يأسه وفى لوعته . ولم يجد هو سوى ملجأ يلجأ اليه ليبتنى أحزانه وليحدثنى عنها وعن حبه لها . فلقد كنت خير صديقة لها وله .

ومرت الأيام وأنا صابرة محتملة ، حتى أحسست أنه قد أخذ يرتاح الى ٠ وأن قرحته قد أخذت تبرأ ، وجرحه يندمل ، وقل حديثه عنها رويدا رويدا ، وشعرت أنه قد أقبل على ، وليس أسهل على المرأة التي تحب من أن تميز أن صاحبها بدأ يعنى بها ، من مجرد أشياء تافهة خفية قد لا يستطيع سواها أن يحس بها كتك النظرات الدافئة التي تحس بها اذا ما التقت الابصار فجأة ، أو تلك الرقة فى الصوت اذا ما تحدث معها أو نطق باسمها ٠

ولست أستطيع أن اذكر تفاصيل تلك الفترة التي انتقلت فيها من اليأس المظلم ، الى الأمل البراق ٠٠ والتي أحسست فيها أن المعجزة قد حدثت ٠٠ والتي وجدتني فيها قد أصبحت محبوبية لمن بنفسى لهفة على الفناء فيه ٠٠ لست اذكر التفاصيل قط ٠٠ فلقد كنت فى نشوة ٠٠ أو فى حلم ٠٠ كنت أكتم أنفاسى حتى أظل فى غفلة من الزمن ، وكنت أغعض عيني ، حتى لا أصحو من حلمي الجميل ٠ وأخيرا سألنى الزواج فوافقت ووافق الأهل ، ولم يطل الأمر حتى كان كل شيء قد أعد ٠

وعادت ابنة عمى من سفرها لتجدنا على وشك الزواج ٠ وأقبلت على تهنئتي بحرارة ، ولكنى أحسست منها برعدة ٠٠ وانتابنى منها خوف شديد ٠٠ أجل ٠٠ لشد ما كنت أخشى أن يعاوده داء حبها ، وأن تنتزع منى مرة ثانية ٠٠ وحاولت جهدى تجنبها والتهرب منها ٠

وتم الزواج ، وضمنى واياى بيت واحد ٠٠ ترقرف عليه السعادة كأنما هو عش فى الفردوس ٠٠ وتمنيت أن أقبع فيه ، لا أزور ولا أزار ٠ ومرت بى الأيام وأنا سعيدة هائلة ٠

ولم يك هناك بد - ونحن أهل واصدقاء - من أن نتزاور وأن يرى

بعضنا بعضا اذ لم يكن هناك معنى للقطيعة ، وان كنت انا اتمناها
من صميم قلبي حتى انأى بزوجى عنها .

وكنت أحاول جهدى ان أخفى ما بنفسى عندما نلقاها . ولكن
يخيل لى أننى لم أستطع . فقد قال لى زوجى ذات مرة عقب
انصرافها من زيارتنا : « لقد كنت جافة معها جدا » .

— انها هى التى كانت جافة .

— انها دائما رقيقة مهذبة .

— طبعاً . . « حسن فى كل عين من تود » .

— ماذا تقصدين ؟

— سل نفسك .

وانصرفت الى حجرتى وغصفت بى نوبة من البكاء .

ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أكف عن اتهامه بأنه ما زال يحن اليها ،

وأن الأيام لم تنتزع من قلبه حبه الغابر . وكان يحاول دائما ان

يقنعنى بخطأ ظنى . . تارة باللطف واللين ، وتارة بالسخط والغضب

. . ولكن عبثا كان يحاول . . فقد كان سوس الغيرة ينخر فى قلبى ،

وينهش صدرى ، فجعلت من حياته جحيما لا يطاق .

وأخيرا تزوجت هى . . وأحسست الاطمئنان يعاودنى . وهدأت

غيرتى بعض الهدوء . وظننت أن زواجها سيبعدها عن طريقى الى

الأبد ، ولكنى كنت مخطئة . . فقد نشأت بين زوجها وزوجى صداقة

متينة ، وكثر بيننا التزاور عن ذى قبل .

وعاودنى دائئى القديم . . الغيرة القتالة . . التى تجعلنى أحلل

كل نظرة عابرة وكل كلمة تافهة ، حتى أضحت حياتنا لا تطاق .

وحملت هى . . فزادت نيران الغيرة فى قلبى تأججا . اذ لم أحمل

أنا رغم مضى سنتين على زواجى .

وفى يوم وضعها . . كانت تساور نفسى أمنية شريرة ، فلقد بلغت

بى الغيرة حدا بت معه اتمنى موتها .. أجل .. لقد كان موتها هو
الشئ الوحيد الذى يعيد الى سعادتى المفقودة وينزع من صدرى تلك
الغيرة المدمرة التى تجعل من حياتى ظلمة دائمة .

لم يكن يخطر ببالى قط أن أمنيى الشريرة هذه يمكن أن تصبح
حقيقة واقعة ، حتى دخل على زوجى فى ذلك اليوم وقد بدا وجهه
قاتما متجهما وأنبأنى فى صوت كالآنين أنها ماتت بعد أن وضعت
طفلة .

وكان النبأ مروعا ، وصدمنى صدمة قاسية ، رغم أننى كنت منذ
لحظات أعتبره أمنية عزيزة .. واندفعت أبكى فى مرارة ، وأفقت من
بكائى لأجده هو الآخر يبكى .. ولأجد الشيطان قد عاد يوسوس
فى صدرى ويحاول أن يدفع فى نفسى الغيرة من بكائه .. ولكنى
دفعته عنى اذ لم أكن من الجنون بحيث أستسلم للغيرة من امرأة ميتة
لم تزل دماؤها ساخنة فى عروقها .

وخفت حدة حزنى بعض الشئ ، وتسلمات بدله الى نفسى تلك
الفرحة الخفية الشريرة الناتجة عن شعورى بأننى تخلصت نهائيا
من غريمة طالما أقضت مضجعى وحرمتنى الراحة والهدوء .

ومر أسبوع وأسبوعان ، وشهر وشهران ، وسنة وسنتان .
ترى هل استعدت هناى بعد أن ذهبت غريمتى ؟ ترى هل كففت
عن اثاره تلك المشاحنات التى طالما تغصت على زوجى حياته ..
بعد أن ذهبت مسبياتها ؟

كلا يا سيدى . كلا . لقد تأصل الداء فى نفسى وأصبح مزمنًا -
ليتها ما ماتت .. فلقد كنت وقتذاك أناضل امرأة حية ، أما
الآن فلا أناضل سوى أشباح وأرواح .

ليتها ما ماتت . فلقد جعل موتها حبه لها حقيقة واقعة .. بعد
أن كان وهما يساور نفسى .. أجل يا سيدى لقد نكا موتها قرحه

وادمى جرحه ، فلقد فاجأته ذات مرة وقد أكب على صورة لها يبللها
بدمعه ٠ ورأيته مرات يزور قبرها لينثر عليه الزهور والدموع ٠
ليتها ما ماتت يا سيدى فلقد كنت واياها سواء أمام الزمن أما
الآن فقد كف الزمن عنها ، فلم يعد له سلطان عليها ، وستبقى
صورتها فى ذهن زوجى وفى قلبه فتية لا تشيخ ، ناضرة لا تذبل ،
مضيئة لا تخبو ولا تنطفىء ٠٠ أما أنا فلقد سخر منى الزمن ، ففى
كل يوم له فى شعرى وفى وجهى علامات وآثار ٠
ان الغيرة تعصف بنفسى ، ولكن ممن ؟ من امرأة ميتة ! ولقد ضاق
بى زوجى فأهملتى وأضحى لا يحس وجودى ولولا ذلك الولد الذى
أنجبه لهجرتنى منذ زمن طويل ٠٠ ان عزائى فى ولدى يا سيدى ٠٠
هذه القصة سمعتها من المرأة منذ عشرات السنين . وكدت أنساها
لولا أنى لقيتها منذ بضعة أيام ، محطة مهدمة . تعيش فى دارها
وحيدة ليس هناك من يؤنس وحشتها ، وسألت عن زوجها فعلمت
أن غريمتها قد سلبتها اياه نهائيا ٠٠ فلقد لحق بها الى السماء ٠
وسألت عن ابنها ٠٠ عزائها الوحيد ٠٠ فعلمت أنه قد تزوج وترك
الدار ٠٠ اتعلمون من سلبته ؟ انها الابنة التى تركتها غريمتها . فقد
سرقَت الأم الأب ، وسرقت الابنة الابن ٠
وبقيت المرأة الغيرى ذابلة ذاوية ٠٠ كأنها عود يابس ٠٠ أو ورق
جف « فاودى به الصبا والدبور » ٠٠٠

to: www.al-mostafa.com

to: www.al-mostafa.com

امراة ضالة

حدثتني المرأة الضالة قالت :

— انا حقا امراة ضالة ؟ ٠٠ ام امراة شاذة ؟ لو قسنا ما اكون حسب ما يعنيه الشذوذ ، فانى بلا جدال امراة شاذة ! قالشذوذ هو ان ينفرد المرء بفعل ما لا يتعوده الناس وان يأتى بما لم يألوه ٠٠ وانى لكذلك ، فما اتيت امرا الا اثار فيهم الدهشة وبعث الاستنكار . ولكن يخيّل الى اننى لو كنت رجلا لما اتهمنى أحد بالضلال أو الشذوذ فكل ما فعلته واستنكره الناس لا يزيد عما يبيحه الرجال لأنفسهم دون أن يتهمهم أحد بما اتهمت به .



أجل يا سيدى ٠٠ ان كل ما ساقصه عليك من أفعالى الشاذة لو نسبته الى رجل ، لما كان قط رجلا شاذا ٠٠ ولكنى قد خلقت امراة ، وامراة ظماى ثائرة ! وحرمت تلك القسرة على التخفى والتستر التى توجب للنساء لكى يسترن شرورهن ، ثم دفع بى الى الحياة ٠٠ فلم أستطع أن اكون الا امراة ضالة !

ما ذنبى يا سيدى وأنا لم أخلق نفسى ؟

ما ذنبى وأنا أحس بظمسا دائماً الى الحب وتعطش دائماً الى الرجال ؟ ٠٠ ما ذنبى وأنا لا أجد من نفسى رادعا يردعنى عن ارواء ظمى واشباع نهى ؟ ٠٠ ما ذنبى وأنا لم أحس قط بخجل أو حياء ؟ منذ أن وعيت الحياة ، وأنا كذلك ، مغرقة فى الضلال ممعنة فى الشذوذ ٠٠ دعنى أذكر لك كيف كنت صبية فى المدرسة ، وكنت ألعب التنس مع زميلاتي ، وكان مدربنا وقتذاك فتى أعرج لا أظن الله قد خلق أقبح منه ولا أشوه . ولكنه كان الرجل الوحيد الذى أستطيع الاتصال به . هل تدري ماذا كنت أفعل ؟ لقد كنت أرجو رئيسة الفريق أن تجعل دورى فى اللعب فى النهاية حتى تنصرف البنات فأخلو الى الفتى .

وأكثر من ذلك ٠٠ تصور أننى كنت - وأنا فتاة - أقفز من سور المدرسة فى العشر دقائق التى للراحة بين الحصص لألقى صاحبى ولأمتع نفسى ببلقائه فى هذه البرهة القصيرة .

وفى ذات مرة أقامت المدرسة حفلاً خيرياً كبيراً وكان على أن أقوم فيه بدور قارئة الكف . وكان ذلك سبباً فى رفتى من المدرسة ٠٠ أتدري لم ؟ ٠٠ اسمع السبب كما روته إدارة المدرسة وقتذاك . لقد كان يتحتم على الفتاة التى هى « أنا » أن تجلس فى حجرة مغلقة ويدخل إليها من يريد قراءة كفه ، ويدفع ما يجود به ، وتأخذ هى فى قراءة كفه لمدة لا تزيد على عشر دقائق ، ثم يدخل غيره وغيره

ودخل فتى وسيم ، ومضت عشر دقائق دون أن يخرج . ربيع ساعة ٠٠ نصف ساعة ٠٠ والفتى قابع فى الغرفة ، ودهشت إحدى المشرقات على الحفلة ٠٠ واقتربت من الباب لتفتحه حتى ترى ماذا يمكن أن يكون قد حدث بالغرفة ، فإذا بالباب مغلق من الداخل

بالمفتاح ٠٠ وطرقت الباب طرقا شديدا ففتح الباب وخرج الفتى ٠
هذا هو سبب رقتى يا سيدى ٠ لقد أعجبني الفتى فاستمتعت به
٠٠ هذا هو كل ذنبى ٠٠ أترانى أستحق الرقت ؟ ٠ أترى فى عملى
هذا شذوذا ؟ ٠٠ أترى فى فعلتى ضلالا ؟
على أية حال هذه كلها حوادث طفولة تافهة ٠ دعنا منها ،
ولنتجاوزها الى ما هو أهم ، الى صميم حياتى كامرأة ناضجة
مكتملة ٠

لا أظننى فى حاجة الى ان أصف لك نفسى ، فأنت أدرى بى ٠٠
ولا أظنك مهما حاولت أن تحط من قيمتى من حيث الخلق والطباع
الا منصف اياى من حيث الفتنة والجمال ! قل عنى جرثومة شر '
قل عنى حيوانة ! قل ما تشاء ٠٠ فأنك لن تستطيع بقولك أن تطفىء
بريق الافتتان المنبعث من آلاف الأعين المتطلعة الى . ولن تستطيع
أن تخفت همسات الاعجاب التى تلهج بها القلوب قبل الألسن : قل
ما تشاء فليس قولك بضائر أنوثتى المتدفقة ولا فتننى الفياضة ! قل
ما تشاء فان قولك سيذهب هباء أمام نضج صدرى واستقامة جسدى
وامتلاء ساقى ! قل ما تشاء ، ولكن لا تقل انى غير مغرية ولا جذابة
فانى ألح فى عينيك مبلغ لهفتك على ٠٠ ورغبتك فى ٠

أنا جميلة ومغرورة ، وجمالى يضاعف غرورى ، وغرورى
يضاعف فى نظرى جمالى ، وهكذا أصبحت أحس أنتى استطيع من
قرط ثقتى بنفسى أن أفوز فى أية معركة ، وأن أصرع أى رجل ٠ وأن
أسلب أى حبيب من حبيبتة وأى زوج من زوجته ٠

وبهذا الشعور ، وبتلك الأمنية بدأت أخوض غمار الحياة مسلحة
بأقوى أسلحة المرأة : الجمال ، والثقة ، والرغبة الكامنة ، لا فى
الحصول على الرجل ، بل فى سلبه من امرأة أخرى حتى أحس بلذة
التفوق والانتصار ، يعزز كل هذه الأسلحة شعور بالاستهتار وتحلل

من الخجل أو حتى بخشية العواقب .. بهذا كله بدأت دورى فى الحياة
كأمرأة .

والتقيت به .. زوجى الأول .. فتى متزوج .. وأقر الثراء .
واندفعت فى حبه .. إذ لم يكن أسهل عندى من الاندفاع فى الحب .
ولم يطل به الأمر حتى سقط صريع هواى ، وسرعان ما اقتنصته من
زوجته .

وعارض أهلى الزواج ، فضربت بهم عرض الحائط .. وقررت
مع زوجى . أنكرونى وتبرأوا منى .. ماذا يضيرنى منهم ما دمت
بين أحضان الرجل الذى أريده وأعشقه !

مر شهر .. وشهران .. وثلاثة .. وأنا أنعم بلذة الهوى
والانتصار .. حياتى مثالية .. كل ما أطلبه بين أناملى وتحت
قدمى ، لو كان معى خاتم سليمان لما استطعت الحصول منه على
أكثر مما حصلت عليه .

ومع ذلك فقد مرت الايام بعد ذلك تحمل غى طياتها الضجر وتبعث
فى نفسى - شيئاً فشيئاً - الملل والسآمة .. لقد بدأ الحب يتطاير
ويتبدل وخيمت على نفسى سحب الكآبة ، وأصبحت حياتى راكدة
أسنة ، وأنا لم أعتد قط الركود ولا السكون ، انى أريد المغامرة .
أريد حبا جديداً وانتصاراً جديداً فقد انطقت جذوة الحب الأول -
وخبت بارقة الانتصار السابق .

ولكننى زوجة .. وسأصبح كذلك أما ، ويجب أن أكون زوجة
صالحة وأما طيبة .. ويجب أن أقنع بزوجى ، وأكمن فى عقر دارى ،
وأن أكبح جماح ذلك الشيطان الذى يحاول أن يتطلق من نفسى .
لا .. لا .. أنا لم أخلق قط لذلك .. هذا الجمال ، وتلك الفتنة
ليس مكانهما الدار . هذه النفس الثائرة الفائرة لا يمكن أن يكبح لها
جماح . أو يستقر لها قرار .. هذه النفس لا تقيم وزناً لنواميس

الحياة ، أو قوانين الزواج .. وهذه النفس التي لا تمل ولا تستحي ولا تخشى أية عاقبة .. لا بد لها أن تنطلق لتنهب من اللذات جهدها .
وهكذا محوت من نفسى أى شعور بقيود الزوجية .. واندفعت
كعادتى باحثة عن عشاق ومعجبين .. الهو بهم ويلهون بى .
ولقد كانوا كثيرين ، متزوجين وغير متزوجين ، أنتقل من واحد
الى آخر ، كالنحلة تنطلق من زهرة الى زهرة ، حتى صادفتنى أحدهم
واستطاع أن يجذبنى أكثر من أى رجل آخر .
وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين زوجى .. كما توثقت عرى
المحبة بينه وبينى . وفى ذات يوم سافر زوجى الى ضيعته فخلا لنا
الجو .

وأتى الى الفتى صبيحة سفره ثم صحبنى الى داره وهناك
أخذنا نلهو حتى حان وقت الغداء فتناولناه .. وأحسست بعد الغداء
باسترخاء وخمول .. وحركت حرارة الجو وقبيلات الفتى ..
الشيطان الكامن فى نفسى .

وضمننا الفراش .. وبدأت أنعم بلذة الاثم .. لذة جارفة قوية ..
ودهش الفتى من سرعة استسلامى .. فالنساء فى هذه الحالات
رغم رغبتهن فى الاستسلام - يظهرن التمتع والتدلل .. ولكنى لم
أكن كذلك ! لقد كنت فى جراءة رغباتى أشبه بالرجل .

وانسقت مع صاحبنا فى دنيا من الهوى والمجون لم تدم أكثر
من ثلاثة أشهر حتى بدأت أمله ، أمله كما مللت سواه ، ولكنه لم
يملنى ، بل كانت رغبته فى ازدياد .. وحاولت صدّه وأفهامه أننى
لا أستطيع أن أحب رجلاً أكثر من ثلاثة أشهر فلم يقتنع .

ومرت الأيام والفتى يزداد بى جنونا وأنا أزداد منه نفورا ..
حتى أنبأ زوجى ذات يوم بكل ما بيننا وطلب منه أن يطلقنى حتى
يتزوجنى هو .. وثار زوجى ثورة .. سرعان ما عسرفت كيف

أخمدتها . واسترضيته فرضي ، واستغفرته فغفر ، وبمرور الزمن
يئس الفتى من حبي فنسيني كما نسيته +
واسدل الستار على هذا الحب . . . ولكن لم تكن لى طاقة على
ذلك . بل اندفعت فى حب جديد . . . حب يا سيدى لم يكن كسابقه ،
ولم يكن لهوا ولا عبثا . . . بل كان حبا حقيقيا ، ملك على مشاعرى . .
وعصف بنفسى عصفًا شديدا .
أجل يا سيدى ! لقد عرفت الحب لأول مرة . . . الحب الذى
يجعلنا نتعلق بشخص معين لا نكاد نبصر سواه .
ولست أدري أكانت هى الرغبة الشريرة التى تدفعنى الى أن
أسلب الزوجات أزواجهن . هى نفسها التى دفعتنى الى ذلك الحب . .
أم كان ذلك مجرد قضاء وقدر . . . فلقد كان الرجل الذى عشقته زوجا
وكانت زوجته صديقة حميمة لى .
وطبعًا لم أتورع فى حبي . . . فأننا - كما قلت لك - امرأة لا تخجل
ولا تحسن حتى ولو لم يدفعها سوى الرغبة فى اللهو . . . فما بالك
وقد أضحى يدفعها حب جارف وهوى عنيف !
لقد أحببت زوج صاحبتى ، واندفعت فى حبه دون موارد
ولا استتار . . . حتى ما بقى هناك مخلوق لا يعرف أننا عاشقان .
وبدأت أصاب بحالة أشبه بالجنون . . . حالة دفعتنى الى أن أثور
على زوجى وأن أبكى أمامه طالبة منه أن يطلقنى ، معترفة له بأنى
أحب صاحبتى وصاحبه أيضا . . . ثم اندفعت محاولة الانتحار
فتناولت زجاجة من الأقراص المنومة .
وأخيرا ، يا سيدى ، طلقنى زوجى بعد أن مرت بى أيام عصيبة
كادت تودى بى الى الموت وتفضى بى الى الجنون .
وطلق صاحبتى زوجته ، وتحرر كلانا من كل قيد وأضحت الحياة
أمامنا باسملة مزدهرة . . . وتزوجنا بعد بضعة أشهر . . . وشهدت

الاسكندرية وشاطئ سيدي بشر منا أروع مناظر الغرام ، وأبدع لوحات الحب ، ورأى منا « الرومانس » ما لم يره من عاشقين قبلنا .. حتى بتنا مضرب الأمثال ..

أنا الآن يا سيدي زوجة لذلك الذي همت به .. وجنتت من أجله .. الرجل الذي نزعته من زوجته ونزعني من زوجي ، لقد أضحي ملك يدي .. لا شريك لي فيه .. أنا يا سيدي امرأة سعيدة .. أحس بأن حياتي قد استقرت ، وأنني لم أعد أطمع في شيء .. ولا أشكو من شيء .. فقط .. شيء واحد أريد أن أهمس به .. أن زوجي يضيق على الخناق .. أنه يخشى أن يلدغ من الجحر الذي لدغ منه سابقه .. أنه يريد ألا يقلت زمامي من يده ، فهو لا يقارقتني لحظة واحدة .. فإذا كشفت ساقاي أشار على بأن أسترهما . وإذا طلبت منه أن أزور ابني أمرني بأن يأتي هو الي . وأنا يا سيدي لم أعود تلك القيود .. اني لا أستطيع أن اتنفس في جو قد خلا من المعجبين والعشاق وكم أخشى أن أختنق أو أنفجر مرة واحدة . فأثور على الرجل الذي أحبيته .. والفظه كما لفظت الذين من قبله .

آه يا سيدي .. كم أخشى من نفسي الضالة المكبوتة المكبوحة . الى متى أستطيع امتلاك زمام نفسي ؟

★ ★ ★

عزيزتي ... المرأة الضالة .

الى هنا تنتهي اعترافاتك .. فانت تدريين ان تلك هي نهاية قصتك حتى وقتنا هذا .. ولكن القراء ناقدون فهم لن يرضوا بهذه النهاية .. ولن يقبلوا مني تلك الضامة ، فلنا ادري بهم . هل تسمحين ان اشارك القدر فأتتم قصتك ؟ وأختم اعترافاتك ؟

ايها القراء .. اليكم البقية مني عن لسان المرأة الضالة .

★ ★ ★

لقد أقلت الزمام يا سيدى ٠٠ لقد أصابنى الضيق وتطرق الى
الملل ٠٠ أريد الانطلاق من ذلك الأسر ٠٠ أريد الفرار من ذلك السجن
٠٠ لقد تبخر الحب من نفسى وتطاير كالهشيم تذروه الرياح ٠٠ انى
لا أصلح قط أن أكون زوجة ٠

بدأت أعود الى سابق عهدى ٠٠ الى الانطلاق والحرية ،
والعشاق والمعجبين ، ولقد مل زوجى فانطلق هو الآخر الى ملاذه
ومتعاته ٠

مرت الأيام والأشهر والسنون ، أنهك السهر جسدى ، وحطمت
الملاذ قواى ٠٠ وبدأت أحس بالذبول والنحول ، وتسلى الشيب الى
شعرى ٠٠ وتسربت التجاعيد الى بشرتى النضرة الصافية ٠

هجرنى زوجى ، وتفرق من حولى المعجبون والعشاق ٠٠ انتى
أحس بالفراغ والوحدة والوحشة ٠٠ أما من عشاق ! أما من
معجبين ! كم أحس بالحنين اليهم واللهفة عليهم ٠

وفى ذات يوم أنبأتنى صاحبة لى أنها على موعد مع بعض العشاق
من الشبان فذهبت معها وقفزت الى العربية الأنيقة التى وقفت
تنتظرنا ٠٠ نظرت الى الفتية الثلاثة الذين جلسوا فى العربية فاذا
بأحدهم ، من تظنه يكون ؟ من هو ؟

لقد كان ابنى ! ٠٠

اه يا سيدى ! أية طعنة سددها القدر فأدمت قلبى ومزقت
حشاى ؟ ٠ لقد انطلق ابنى يسوق العربية ٠٠ وأحسست من اضطرابه
انه قد عرفنى ٠٠٠ ولم أتكلم ٠٠٠ ولم يتكلم ٠٠٠ ولكن كانت كل
جارحة فينا تكاد تنطق !

كم كنت أود لو انشقت الأرض فابتلعتنى فى جوفها ٠٠ لأتخلص
من هذا المأزق ٠٠ واستجاب الله دعائى ، فقد رأيت عجلة القيادة

تضطرب فى يده • ثم أحسست بالعربة تندفع فى جنون •• ولم
أحس بعد ذلك شيئاً •

وافقت فإذا بى فى أحد المستشفيات •• وشعرت بانى فى النزوع
الآخر ، وأن لحظاتي فى الحياة معدودات ، وسألت عن ولدى فقيل
انه مات •• متى ينعم الله على بالموت انا الأخرى ؟

★ ★ ★

ولقد كان الله كريماً فأنعم عليها بما طلبت •

أيتها المرأة الضالة •••

لا تحزنى على نفسك يا سيدتى • ولا تحنقى لهذه الخاتمة
القاسية • فما ابتغيت بها الا ارضاء القراء ، وأعذرينى فان
ارضاءهم يحتاج الى شئ من التهويل والتهويل •• ولو أننى أشك
كثيراً فى أن القدر سيهديك خاتمة خيراً منها •• والأيام بيننا •••

امراة شكى

جلست اليها منصتا مصفيا ، وساد المكان سكوت أصبحنا من
فرطه نكاد نسمع أنفاسنا تتردد ٠٠ ورنوت اليها فلمحت فى عينيها
بريقا وفى وجهها اشراقا ٠٠ بريق ايمان واشراق طمأنينة ٠٠ وشدت
من الهواء نفسا طويلا أخرجته بعد برهة فى زفرة هادئة ٠٠ ثم
أراحت ظهرها على مسند المقعد وشخصت ببصرها فى الفراغ
البعيد ٠٠ وبدأت تقص على قصتها ، كأنما تستوحياها من ذلك
الفراغ .



يقولون ان « الآنن تعشق قبل العين أحيانا » :٠ وأزيد على قولهم
ان الذهن قد يعشق قبل الآنن وقبل العين ، ولقد كان ذلك هو طريق
عشقى له وحبى آياه .

كنت أقرا له كل ما يكتب ٠٠ ويخيل الى ان كلمة « أقرأ » ٠٠
لا تعبر تماما عما أعنيه ٠٠ فهى بالنسبة لما أعنيه كلمة سطحية
عامة ٠٠ ليس بها ذلك العمق أو الحرارة التى أريد أن أعبر عنها ٠٠
اذ لا شك أنه شتان بين ان يقرأ المرء جرائد الصباح ٠٠ بما فيها

أسعار البورصة ، وتنقلات الوزراء ، وبين ما كنت أفعله عند ما كان
يقع بصرى على احدى قصصه أو قصائده .

هل تدري الفارق بين قزقة اللب ، وبين اقبال نهم محروم على
مائدة رصت عليها أشهى أنواع الطعام ؟ . هل تدرك الفارق بين
جلوسك الى شخص يقدم لك النصائح والمواعظ ، وبين جلوسك الى
حبيب يذيقك لقاؤه ؟ لقد كان هو الفارق بين ما تعنيه القراءة العادية
بالنسبة الى . . وبين ما تعنيه قراءتى لكل ما يكتب . . كل ما يكتب
بلا استثناء !

كنت اتتبع كتابته فى الصحف والمجلات . وعندما كنت أعثر على
شئ من كتبه . . لم أكن أقرأه لأول وهلة ، بل كنت احتفظ به فترة
من الوقت ، فقد كنت أحس فى الاحتفاظ به لذة البخيل تصل الى يده
الدراهم فيأبى صرفها ، رغم أن صرفها قد يعود عليه بلذة كبرى . .
أو لذة المحروم يحصل على نوع من الفاكهة الثمينة ، فيتمتع بأبقائها
معه برهة قبل أن يأكلها .

ولم أكن أقرأها بعد ذلك الا حينما أخلو الى نفسى ، وأستريح
فى جلستى أو فى رقدتى ثم أبدأ بتذوقها . . أو احتسائها رشفة
رشفة . . وقطرة قطرة . . شاعرة أنها قد حملتنى الى عالم آخر . .
عالم نسجه هو ورفعنى اليه .

كنت أحس فى تلك اللحظات أنى أحيا معه ، بين السطور وبين
الكلمات . . دون أن يحس هو بى . . وكنت أشعر أننى ألقاه وأن
كان هو لا يلقانى .

وهكذا يا سيدى عشقه ذهنى قبل أن تحس به أية جارحة فى
نفسى . . ولا شك أن عشقى له وقتذاك كان نوعا عجيبا من العشق . .
نوعا يقوم كله على التصور والوهم . . وعلى القناعة والزهد . .
فقد كنت لا أعرف من يكون ، ولم تكن لدى أية فكرة عن شكله أو

عمره ٠٠ أكان شابا أم كهلا ٠٠ أعزب أم متزوجا ٠٠ قبيحا أم
وسيعا ٠٠ كل هذا لم أك أدري عنه شيئا ، فما رأيت له صورة قط ،
ومع ذلك فقد كنت أرسم له فى ذهنى صورة ٠٠ هى خليط من أبطال
قصصه ٠٠ صورة رجل مخرب عركته التجارب وحنكته الأيام ٠٠
قد لاقى فى حياته ما ضلّقه وجعله يشع بذلك الاشعاع من النبوغ
فان كتابته لا شك ترديد لما صادفته نفسه .

وهكذا يبدو لك مدى ما كان فى حبى من تصور وهم . اما ما كان
فيه من قناعة وزهد فقد كان مبعثه أننى أعشق شخصا لا يحس بى ٠٠
ولا أمل لى فيه ٠٠ فلا أظننى كنت الا واحدة من آلاف قرائه والمعجبين
بكتاباته ٠٠ ولا أظن أنه كان هناك أى احتمال للقاء بينى وبينه ،
وحتى لو صح هذا الاحتمال ٠٠ فما أظننى كنت أتوقع أن أنال شيئا
من اهتمامه أو احظى بقليل من التفاته .

وفى ذات مرة قرأت له قصة لست أنكر عنوانها بالضبط ولكنى
أذكر أنه قد ختمها بسؤاله القراء عن رأيهم فى مصير بطلة القصة ٠٠
وترددت بين أن أكتب له أو لا أكتب ٠٠ فدافع يدفعنى الى الكتابة
والى أن أنتهز الفرصة لأعبر له عن اعجابى به واحساسى نحوه ٠٠
ودافع يردعنى لأن كتابى اليه لن يكون سوى واحدا من مئات أو آلاف
٠٠ وقد لا يقرؤه ٠٠ أو قد يقرؤه ٠٠ ولا يكون نصيبه منه الا
السخرية .

وأخيرا كتبت ٠٠ قبلامة العشاق تتغلب غالبا على حكمتهم ٠٠
وهل ترك العشاق للعشاق حكمة ؟

كتبت اليه ٠٠ لا لشيء الا لأنى كنت أحس بلذة فى الكتابة ،
وكانت رسالتى طويلة الى الحد الذى لم أشك بعد أن أرسلتها اليه ،
أنه لن يقرأها فما أظن لديه من الوقت ما يضيعه فى قراءة عبث
القراء ؟

ومر يوم ويومان ، وأسبوع وأسبوعان ٠٠ وأخيرا حمل الى
البريد خطابا ٠٠ يحمل ظرفه خطا غريبا لا أعرفه ٠٠ وقضضته
ووقع بصرى على الامضاء فى نهايته ، فاذا به منه .

وكما تعودت أن أفعل بكل كتبه ، طويت الخطاب دون أن أقرأه .
لا أظنك يا سيدى يمكن أن تتصور المتعة التى أحسست بها عندما
وقع برى على امضائه الذى كتبه بخط يده ٠٠ لقد كانت أكثر متعة
لى فى الحياة هى أن أقرأ شيئا كتبه ، كتبه للناس عامة ٠٠ دون أن
يحس أنى واحدة من هؤلاء الناس ٠٠ فما بالك وقد كتب الى وحدى
٠٠ كتب الى خطابا لا يعنى به سوى ولا يشاركنى فيه أحد !

وأخيرا أقبل الليل ، وضمنى الفراش ، فأخرجت الخطاب بحرص ،
كأنى عابدة تتبيل وتتعبد ٠٠ وأخذت أقرؤه ببطء وتأن ، كأنى أتزده
بين السطور . أو أتتسم عبير الكلمات ٠٠ حتى أتيت على آخره ،
وهل كان له آخر ؟ أبدا والله ، فقد كنت أصل الى النهاية لأعود الى
البداية ٠٠ ثم أطويه برهة ، لأعيد نشره بعد ثوان . لقد قرأته ما يقرب
من الخمسين مرة ٠٠ ولم لا أقول لك انى قد حفظته عن ظهر قلب !

ماذا كان بالخطاب ؟ ٠٠ لا شيء ٠٠ لا شيء أبدا يستدعى ذلك
الفرح وتلك المتعة ٠٠ ولكنك تعلم أن العشاق مجانين وأنهم يجعلون
من « حبة » الحبيب « قبة » مليئة بأكداس النعيم ٠٠ لقد كان الخطاب
لا يحوى أكثر من بضع كلمات شكر رقيقة متواضعة ٠٠ وبضع كلمات
اعجاب بردى الذى كتبه له ، وبضع كلمات - على سبيل المجاملة -
يأنه يسره أن أكتب اليه دائما .

وكاية عاشقة حمقاء ٠٠ بلهاء ٠٠ كتبت اليه مرة أخرى ٠٠ كتبت
اليه أسأله رأيه فى بضعة أبيات من الشعر ، كنت قد كتبتها وتجرات
على نشرها فى إحدى المجلات ٠٠ وما زالت ذاكرتى تعى منها
بعضها ٠٠ وهى :

لو تجد لى يوصال بعد ما غبت سنينا
للهونا فى نسيم الليل قرب الياسمين
اه لو تذكر ما مر لرجعت الانينا
كم هذا القلب اليك وان كنت ضينا

وحمل الى البريد رده للمرة الثانية .. ينبئنى فيه باعجابه
بشعرى ، ويصفه بالرقه .. ولست أعلم اكان اعجابه اعجابا حقا ،
ام انه كان مجرد مجاملة ؟ على أية حال .. لم يكن اسهل على وقتذاك
من ان أقنع نفسى انه اعجاب حقيقى .

وكتبت اليه مرة اخرى اساله ان يتفضل على بصورة .
واقول الحق ، انى ترددت كثيرا قبل ان اطلبها فقد كنت أخشى
ان تطيح صورته الحقيقية .. بالصورة التى رسمتها له فى ذهنى
وان يصرع قبح الحقيقة جمال الخيال .. أجل .. كنت أخشى ان
تكشف الصورة خدعة أوهاى وأحلامى .

ومع ذلك فقد طلبتها منه ، ولم يرفض هو فقد حمل البريد الى
خطابه الثالث وبه بعض الثقل .. وأحسست باضطراب شديد كأننى
على وشك ان اللقاء .. ولم افتح الخطاب ، بل أخفيته كأنى سارقة ..
أو كما يخفى المحتاج نقودا عثر عليها فى قارعة الطريق . خشية
ان يبصره أحد المارة فينتزعها منه .
واستطعت ان أصبر حتى ضمنى المضجع .. وفتحت الخطاب ،
وأخرجت الصورة .

وأصابتنى ان ذاك دهشة .. وأخذت أسائل نفسى : أحقا هذا
هو ؟ لا أظن ! لا يمكن .

كانت الصورة لفتى تشيع فى وجهه ضحكة مرحة .. تبدد من
حولها هموم الحياة .. وجه ليس به اثر لتجاريب أو هنكة ، بل
كل ما فيه اشراق وضياء وأمل مزدهر .

ورأيت الحقيقة قد كشفت خدعة الخيال .. ولكنها كشفتها الى
ما هو خير وأفضل .. وأدركت أن الأوهام والأحلام رغم قدرتها
على التحسين .. لم تستطع أن تستبِق في هذه المرة .. الحقيقة
الواقعة .

وتراسلنا بعد ذلك بضع مرات ، حتى كتب الى ذات مرة يقول :
« كيف أنت ؟ أخشى أن أسألك صورتك .. فتبدد تلك الصورة التي
أرسمها لك في رأسي .. فهل أجروُ على سؤالك اياها ؟ أم اكتفى
بصورة الأوهام .. خبريني ما رأيك ؟ » .

ولقد قضيت طيلة يومي ، أتأمل كل ما لدى من صور .. وأسائل
نفسي : ترى أية صورة يرسمها في ذهنه ؟ .. هل تخذلني صورتي
لو أرسلتها له .. لقد كنت حائرة في تقدير نصيبي من الجمال .
ورغم أنني كنت أحس أنني جميلة .. فقد كنت أعلم أيضا أنه ما من
امرأة لا تحس أنها جميلة ، وما من انسان يستطيع أن يرى قبحه .
مرت الأيام - وأنا - مترددة يتقلب على الجبن .. حتى رأيت
الظروف العجيبة تضع حدا لحيرتي ، بطريقة لم أكن أنتظرها قط .
أتدري كيف ؟ .. لقد لقيته وجها لوجه .

ولم يصعب على أن أدرك - بغريزة المرأة - أن مرأى لم يخذله ،
على النقيض ، لقد أحسست أنني قد صرعت صورة أوهامه ، وأنني
قد هزمتها شر هزيمة .

لا تسألني كيف عرفت ذلك ، فليس أسهل على المرأة ، وخصوصا
العاشقة ، من أن تدرك من مجرد نظرة تسرى بين الأعين .. أنها
ذات قيمة .. وذات موضوع .. لقد أقبل على في سرور ولهفة ..
عندما عرف أنني أنا .. ولم أكن بالطبع أقل منه شوقا ولا لهفة ..
ولم نكن قط في حاجة الى تلك الشكليات التي تحدث عادة بين اثنين
يلتقيان لأول مرة ، فقد كنا نحس أن بيننا قديم معرفة وسابق لقاء .

وتحدثنا كثيرا ٠٠ وافترقنا ٠٠ وبى نشوة السكرى ٠٠ ولم أكن
أصدق أننى لقيته وتحدثت اليه ، وأنه خصنى وحسدى دون سائر
الفتيات بأقباله واهتمامه ٠٠ وكيف أصدق ٠٠ وأنا ما كنت أجرو
أن أجعل من هذا مجرد أمنية ؟

وتكرر اللقاء بيننا بعد ذلك ٠٠٠ وفى كل مرة كنت ألقاه ٠٠ كنت
أحس أن حبه يزداد نفاذا الى نفسى ٠٠ أو على الأصح ٠٠ كنت أحس
أن حبه قد تطور فأضحى شيئا جديدا .

لقد كنت أحبه بذهنى ٠٠ فأصبحت أحب بقلبى وبكل جارحة فى
نفسى ٠٠ لقد كنت أعشق كتابته فأصبحت أعشق كل شئ فيه .

لقد كان يا سيدى يستحق الحب ! ٠٠ كنت أجلس اليه فأجده
مخلوقا لطيفا رقيقا جم التواضع ، وهو الذى لو ملأه الغرور لغفرت
له غروره ، فقد كان خير عباد الله كلهم ٠٠ أهذا هو الذى أظنه
ذا تجارب وحنكة ؟ . أهذا هو الذى كتب مئات القصص عن الحب
والعشاق ، والذى كان يحلل نفوسهم تحليلا لا يستطيعه الا رجل خبر
أمور الغرام وشؤون الهوى ؟ .

لقد كان يجلس الى وكأنه تلميذ عاشق ٠٠ وكان لا يسعده قدر أن
أعطيه يدى ليأخذها برفق بين يديه ٠٠ ويظل يحدثنى حديثه الطلى
الضاحك الذى يغمرنى فى نشوة ممتعة .

لا أطيل عليك الحديث يا سيدى ٠٠ لقد ظللنا نمرح فى مرعى
الهوى ٠٠ حتى سألنى مطلبيا كنت أتوق اليه وأحلم به ، لقد سألنى
الزواج .

وتمت الخطبة ، ومرت أيام الخطبة حلوة لذيدة .

وأخيرا تحقق الحلم الأكبر ٠٠ فتم الزواج .

لا أظن هناك سعادة يا سيدى يمكن أن تعادل سعادة امرأة تجد
الرجل الذى أفنت نفسها فى حبه ، أضحى ملكها ٠٠ ملكها وحدها ٠٠

لا شريك لها فيه ٠٠ هي التي تطعمه ، هي التي تعد له ثيابه ، وهي التي تهيب له راحته ، وهي وحدها التي ترتدى فى احضانه فيدللها وتدله ٠٠ كأنها طفلة وكأنه طفلها ٠٠ أى احساس أجمل من أن تحس المرأة أنها قد أضحت تملك الرجل الذى تحبه وأنه قد أضحي بملكها ٠

لقد كنت أجلس على أريكة أمامه ٠٠ ويداي منهنكتان فى عمل صديرى له من الصوف ، وعيناي تتأملانه وقد جلس على مكتبه وانهمك فى الكتابة ٠٠ فشرى بى الذهن ٠٠ واتصور الأيام التى كنت لا أجد فيها متعة أكثر من التسلى بقصصه وقصائده وكتبه الى مضجعى فأخلو بها الى نفسى ٠٠ وأظلم ارتشف منها وأحتسى ٠٠ كان هو وقتذاك حلما فى رأسى ٠٠ وخيالا يساور نفسى ٠٠٠ وكان بالنسبة الى لا يزيد عن أبطال الخرافات ٠٠ كيف مر الزمن فأضحى زوجى ؟

هل كان يخطر لى على بال وقتذاك أنه سيأتى يوم أجلس أمامه هكذا لأرمقه وهو يكتب ٠

وتتملكنى اذ ذاك نشوة ٠٠ وتغمرنى فرحة ، فأجد نفسى قد قمت من مكانى ٠٠ يدفعنى دافع لا أستطيع مقاومته ٠٠ فأقترب منه وهو منهمك فى الكتابة واتحسس شعره برفق ٠٠ فيرفع الى رأسه مبتسما وتلتقى شفتانا فى قبلة رقيقة ٠٠ ثم أعود الى مكانى قريرة العين ٠ والواقع يا سيدى أنتى لم أكن مبالغة فى احساسى بالسعادة معه ٠٠ فانه لم يخذلتى قط ٠٠ فأنت تعلم دائما أن الانسان يخذله الواقع ٠ وانه دائما يصور لنفسه أحلاما براقية ، فلا يكاد يحصل عليها حتى تضحي حقائق معتمة ٠٠ ولكن لم يكن كذلك قط ٠٠ أتذكر كيف رأيت صورته فوجدتها خيرا مائة مرة مما كنت أتصور ؟ ٠ لقد كان الحال معه كذلك دائما ٠٠ أجل ! فكما رأيت صورته خيرا

مما كنت أتخيله ، رأيت شكله خيرا من صورته ، فلما أضحينا عاشقة وعاشقا رأيت قلبه أجمل من شكله ، وباطنه أحسن من ظاهره . . . فلما تزوجنا - والزواج يكشف الانسان على حقيقته الخفية الكامنة - وجدته انسانا مثاليا ، ووجدت حقيقته المجردة ، لا عيب فيها ولا هنة .

ماذا تريد الزوجة أكثر من رجل محب ، رقيق ، عطوف هادئ الطبع ، قليل الغضب ، كثير المرح ، لا يحمل هما . . . ولا يجعلها تحمل هي هما . . . يعطيها كل حقها ، ولا يطلب منها الا ما تعطي . . . لا يعرف الخمر ولا يعرف الميسر ؟

لقد كان هو ذلك الرجل . هل كنت مبالغه في احساسى بذلك القدر من السعادة بين أحضانه ؟

وكنا نهىء فى دارنا الصغيرة كل ما نستطيع من متعة . . . فلم نكن فى حاجة الى زوار لتسليتنا . وكان كل منا يشارك الآخر فى عمله . . . فكان لا يرسل القصة أو القصيدة للنشر الا اذا قراها لى وأخذ رأى فيها . . . وكان كثيرا ما يدخل عليها تعديلات كنت أقترحها عليه . وكنا دائما نشترك فى تنسيق الحديقة . كما كنا نشترك فى كل شىء آخر . . .

وكانت خير وسيلة لتسليتنا هى جهاز صغير لتسجيل الصوت وملء الأسطوانات . . . وكان قد أهدى له من أحد أصدقائه عند زواجنا . . . فكنا نجد متعة كبرى فى تسجيل قصائده عليها ، وكنت أنا التى أقوم بتسجيلها عليه اذ كان يرى أن صوتى جميل فى الالتقاء ، وكنت أجد لذة فى ذلك ، وأذكر أن أول أسطوانة ملأتها له هى أول قصيدة نظمها عندما كان طالبا بالمدارس الثانوية ولقد كان مطلعها

يا أيها الرامى المسدد من عيونك بالشهب
تدمى قلوب العاشقين بلا نبال أو لهب
وكان أكثر ما يطربه فى أوقات فراغه هو أن يستعيد سماع تلك
الأسطوانات .

ومرت بى الأيام هادئة ناعمة . . وزادت سعادتنا عندما أحسست
ببؤاس حمل .

ووضعت طفلا شديدا الشبه بأبيه ، وكانت ولادته عسيرة بعض
الشيء . . ولكن الله سلم العاقبة .

أنت أب يا سيدى . . وتعرف أية بهجة يخلعها الأطفال على
البيوت . . انى ما كنت أعرف حكمة قوله تعالى : « المال والبنون
زينة الحياة الدنيا » حتى رزقنا بذلك الطفل .

لقد كنت أسائل نفسى وأنا أضمه الى صدرى كيف كنت أعتبر
الحياة قبل أن أنجيه .

ولست أكتمك القول أنه خفف بعض الشيء من اهتمامى بأبيه ،
ولست أعنى بكلمة اهتمامى « حبى » فان حبى لأبيه لم يكن يستطيع
أن ينال منه مخلوق . . بل أقصد بالاهتمام تلك اللفتة وذلك التدليل
الذى كنت أغرقه به . وقد يكون هو أحس بذلك ولكنه لم يتضايق .
فقد كان ذلك هو الحال بالنسبة اليه أيضا اذ كان الطفل يشغل منه
كل فراغه . . وكان لا يعمل من قضاء الساعات الطويلة فى تدليله
وتسلية .

وكان أكثر ما يزعجنا هو تلك الأمراض الطارئة التى تطرأ على
الأطفال كالاسهال والتسنين .

ومرت الأشهر . . ولا تسل عن فرحتنا عندما بدأ يحبو ثم يسير
ثم يتلفظ بعض الألفاظ كـ : « بابا . . وماما » . لقد أخذنا من فرط
فرحتنا نسجل له الأسطوانات التى لا تسمع منها أكثر من كلمات

متفرقة لا معنى لها ٠٠ ولكنها كانت تطربنا أكثر من أعذب الألحان
وأجمل الموسيقى ٠

وقررنا أن نعلم له أسطوانة كل شهر ٠٠ ونحتفظ بها لكي نهديها
إليه عندما يصبح رجلاً ٠٠ لأنها ستكون أجمل ذكرى ٠

ومر بنا عام وثان وثالث ٠٠ وشب الطفل محوطاً بكل وسائل
العناية والرعاية ٠٠ ولم يكن أحب إلى أبيه من أن يأخذه بين
أحضانهِ ٠٠ ويقص عليه القصص ٠

وكم كان يضحكني أن أرى أباه ٠٠ الكاتب العبقري الذي طالما
هز المشاعر بقصصه الرائعة وأشعاره الرقيقة وقد رقد بجوار الطفل
يقص عليه سخافات تضحك الثكلى والصغير مصغ إليه بكل جوارحه
يستعيد ويصح له الوقائع تارة أخرى ٠

وكم مرت ليالى الشتاء الحلوة وقد جلس ثلاثتنا أمام المدفأة
وأخذت أشوى لهما « أبو فروة » وهما يزدردانه الواحدة بعد الأخرى
وقد انهمك الأب فى قصة الفار المهندار والفارة النقارة ٠

ويصل إلى سمعى صوت الأب مسترسلاً فى حكايته : « ثم أسقطت
الفارة ذيلها فى صفيحة العسل » ٠

ويقاطعه صوت الصغير قائلاً فى اهتمام : « صفيحة السمن
يا بابا » ٠

ويراجع الأب نفسه ويقول معتبراً : أجل ٠٠ أجل ٠٠ وضعت
ذيلها فى صفيحة السمن ٠

وتنقضى الساعات الطوال ، الأب يحكى والابن يستمع ٠ لا هذا
يكل من الكلام ٠٠ ولا ذاك يعمل من السمع ٠٠ حتى يروح الصغير فى
غفوة فيحمله فى رفق إلى فراشه ٠

ومر عامان آخران وذهب الطفل إلى المدرسة ، وكنا ما زلنا على

عهدنا فى ملء الاسطوانات ٠٠ وأضحى يسجل فيها الأناشيد التى
يلقنونها اياه فى روضة الأطفال كقطتى الصغيرة .
وحاول أبوه أن يلقيه أشعاره لكى يسجلها له ٠٠ وأخذ يضع
له أراجيز بسيطة حتى يستطيع قراءتها والقائها .

★ ★ ★ .

وصمتت محدثتى لحظة ٠٠ ومدت يدها الى كوب من الماء تجرعت
منه نصفه ٠٠ وبدأ عليها كأن الحديث قد أجهدا واعتدلت فى مقعدها
لتغير جلستها . ثم انطلقت تتم قصتها قائلة :
وفى ذات ليلة لا تزال صورتها منقوشة فى مخيلتى . ولا أظنها
ستمحى منها أبد الدهر ٠٠ ولقد كانت الليلة الأخيرة فى شهر رمضان
والبيت يفيض بالمرح والسعادة .

ولست أظنك يا سيدى الا مدركا فرحة الاطفال وابتهاجهم بليلة
رمضان الأخيرة ٠٠ ليلة العيد السعيد ٠٠ وهم يودعون مصابيحهم
الملونة ٠٠ وأناشيدهم الطرية المرحية ، ويعدون ثيابهم الجديدة .
فى تلك الليلة صعد ابننا الى الدار بعد أن انتهى من لهوه
بالفوانيس مع بعض أطفال الجيران . ثم بدأ يخرج حلتة الجديدة
ليعلقها على مقعد بجوار فراشه ووضع الحذاء الجديد أمام المقعد
ووضع بداخله جوربه الجديد .

وأقبل أبوه وشاهد المنظر فاستغرق فى الضحك ونظر الى قائلا :
— تماما كما كنت أفعل فى مثل تلك الليلة ٠٠ لا فارق بين الابن
والأب

وانتهى الصغير من تجهيز ملابسه ٠٠ قحمله أبوه بين يديه
وأوسعه تقبيلًا وهو يحاول التملص من بين يديه . وقال الأب مغريا
اياہ :

— ما رأيك فى تسجيل اسطوانة ؟

- هائلة .

ولم يكن أحب الى الصبي من تسجيل الاسطوانات . . واقبل
الاثنان يعدان الجهاز وقال الصغير لأبيه :
- ماذا أقول ؟

- سأنظم لك أنشودة تناسب الليلة . . وسأسطرها لك حتى
تسجلها وحتى تتذكر بها ليلة العيد .

واخذ الأب يكتب ويشطب وبعد دقائق هز رأسه وقال :
- خمسة أبيات لا بأس بها .

وقراها له بضع مرات . . ثم أعد الجهاز وبدأ الصغير يلقي
القطعة بصوته الرقيق هائلا :

ليلة العيد فى سنناك وقفنا
موكبنا حافلا : بنات وغلله
ننشد الشعر والقلوب تغنى
فى حنايا الصدور الأفراح جمه
كل طفل فى كفه مصباح
ساطع الضوء كاشف للظلمه

وهنا توقف الجهاز . . فقد أصابه عطل ، ولم تكن أول مرة
يحدث فيها هذا العطل . . فقد كان الأب متعبا اياه واقبل على
الجهاز يحاول اصلاحه ، ومضت فترة وهو مكب عليه ، وأخيرا رفع
رأسه وقال بشيء من الملل :

- لا بأس . . نؤجل تكملة الأنشودة الى غد . فلا شك أننى
أستطيع اصلاح الخلل فى النهار .
- اذا . . تحكى لى حكاية .

وهز الأب رأسه بالموافقة ، وجلس الاثنان على احدى الأرائك .
وأخذ يقص عليه احدى قصصه حتى أسلمه الى النوم .



وصمتت محدثتى مرة أخرى ، ورأيت وجهها الذى كان مشرقا
بالايمان قد علتة فجأة سحابة حزن اليلة معتمة ، ولحت غشاوة
من الدمع قد حجبت بريق عينيها . . . وبدت كأن فى جوفها صراعا
يشدد أواره . . . ثم انطلقت منها زفرة حارة . . . حملت معها شيئا من
لهيب صدرها . . . ثم استرخت السيدة على مقعدها . . . وبدت عليها
يوادر الراحة ، وخيل الى كأنها انتصرت على أحزانها . . . فقد
انقشعت سحابة الحزن وانجلت غشاوة الدمع ، وعاد الى وجهها
اشراق الايمان والى عينيها بريق الطمأنينة ، ثم قالت بصوت هادىء :
- الحمد لله ، الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

وصمتت لحظة تستجمع فيها شوارد أفكارها . . . ثم أردفت تقول :
- لقد نام ابننا العزيز . . . على أن يستيقظ فى الصباح لكى
يرتدى ملابسه التى جهزها بجوار فراشه . . . وليتم ملء الأسطوانة
بعد أن يصلح أبوه ما بالجهاز من عطل . . . ومع ذلك فما ارتدى
ملابسه ، وما أتم ملء الأسطوانة قط .

انه استيقظ قبيل الفجر ، وظلام الليل لم ينقشع بعد . استيقظ
وأيقظ معه كل من فى الدار . . . فقد أخذ يصيح صياحا يفتت الأكباد
. . . اذ كان يحس ألما فى معدته ، وحاولت تهدئته بوضع قربة من الماء
الساخن . . . ولكن ألمه لم يهدأ . . . وخرج أبوه وهو يكاد يجن ، يطرق
باب الأطباء واحدا واحدا حتى أتى بعد ساعة ومعه أحدهم .

وكشف الطبيب صدر الصبى ، وتسمعه بسمعته ثم نقر على
صدره وعلى ظهره عدة نقرات . . . ثم تحسس بأصابعه بطنه . . .

وبدت عليه علامات الحيرة ، وكان الصفيـز قد هدأ بعض الشيء ،
ولكن لم تمض برهة حتى عاوده الألم ، وعاود الصياح ، وكتب الطبيب
لنا بضعة عقاقير ثم حاول طمأنتنا وانصرف .

وفى الضحى استدعينا طبيباً آخر ، وكان الصبى قد عاوده
الهدوء . . . وأن كانت أنفاسه قد أخذت تتلاحق ، وبدأ يلهث كأنه
يجرى فى سباق . . . وفحصه الطبيب ، وعندما انتهى من الفحص . .
أنبأنا أنها مبادئ التهاب رئوى .

وصدمنى قوله صدمة شديدة . . فقد كنت لا أخشى شيئاً كالالتهاب
الرئوى . . وكنت أفزع لمجرد أن أسمع به يسعل سعالاً خفيفاً ، أو
يصاب بزكام . . فكيف بى وأنا أراه يصاب بالالتهاب مرة واحدة .
وعصفت بى نوبة من البكاء . . وحاول زوجى تهدئتى . . رغم
أنه كان فى حاجة الى من يهدئه .

وبدأنا العلاج ، بالسييازول . . والانتفلوجستين .
ومر يوم ويومان ، وثلاثة ، وانقضت المدة التى كان يجب أن يبل
فيها الطفل . . ومع ذلك فانه لم يبل ، واستمرت الحرارة مرتفعة كما
هى . . واحتار الطبيب ، وليس أشد على أهل المريض ، من أن يروا
الطبيب الذى وضعوا فيه ثقتهم . . قد انتابته حيرة وأصابه قلق .
واستدعينا ثلاثة أطباء آخرين لعمل « كنسلتو » .

وأعادوا فحص الطفل . . وتشاوروا فيما بينهم . . وأخيراً استقر
رأيهم على أن الطفل قد أصيب بصديد فى الرئة .
وتلقيت الطعنة الثانية التى وجهها الى القدر . . وأحسست أنى
أترنح أمامها . . وأن قدمى لا تكادان تحملانى . . وارتعيت على
الفراش مرتجفة باكية .

لست أدري كيف كنت أعيش وقتذاك . . لقد كنت أشبه بجندى
جريح فى معركة غلب فيها على أمره . . وأصيب من هول المعركة

بذهول جعله لا يدرك شيئاً مما حوله .. ولا يعرف الا أنه يسير ..
الى أين .. ؟ الى متى ؟

لا يدري !

وبدأوا يجرون للصبي العزيز عمليات البذل .. ويدخلون في
ظهره ابرة طويلة تنفذ الى الرئة لكي يمتصوا بها الصديد .

ولم يجد البذل نفعا .. وقالوا لنا .. جربوا « البنسلين » .
وبدأنا نجرب البنسلين .. وأعطى الصغير ما يقرب من مائتي حقنة
.. ومرت بنا ليال كنا لا نذوق فيها النوم .

كل ذلك وأبوه هادئ ساكن .. يملأ الايمان قلبه وتفيض السكينة
بين جوانحه .

تصور يا سيدى .. أنه هو الذى كان يمسك بالصبي لكي يضع
الطبيب الابرة في رئته .. لست أدري اغلظة منه .. أم شجاعة
وايمان . وكان يكره منى ذلك الجزع .. ولكن ما حيلتى في نفسى
وقد طارت شعاعا .. أية شجاعة يطلبونها منى وأنا أرى ولدى
يترنح بين برائن الموت ؟

وأخيرا قضى الأمر .. فلا نفع البذل ولا البنسلين .. ولا مهارة
الأطباء .. لقد نفذ فيه قضاء الله ، ولا راد لقضائه .

لا تسلى كيف ؟ .. فقد كان يوما أسود .. كنت فيه فى حالة
غيبوبة وذهول .

ومرت بى الأيام بعد ذلك وأنا محطمة مهدمة .. لا أكلم أحدا ،
ولا أرى أحدا . ولا أفعل شيئاً سوى النحيب والبكاء . حتى زوجى
الحبيب لم يستطع أن يهينى لى العزاء والسلوان .. لقد كنت أريد
ابنى .. ابنى الذى انتزعوه منى .. وأرقدوه وحيدا ، فى ظلمة
قبر موحش مقفر .

وفى ذات يوم خرج زوجى ، وجلست فى الدار وحيدة ، واحاطتنى
الهموم والخواطر واندفعت فى النحيب .

وفجأة خطر لى خاطر عجيب .. خيل الى انه قد يبعث الى نفسى
شيئا من العزاء . وهو ان ادير بعض الأسطوانات التى ملاها ولدى ،
فلا شك أن صوته سيعوضنى بعض ما أحسه من فقده .

وترددت بعض الشيء ، فقد تملكنى من الخاطر خوف شديد ..
ولكنى قمت فى النهاية ، وتوجهت الى صندوق الأسطوانات ، فكان
أول ما صادفنى هى الأسطوانة التى لم يتم ملئها ، والتى سجلت
آخر ما تحدث به ولدى العزيز .

وأمسكت الأسطوانة بيد مرتجفة ، وأنا لا اكاد أتمالك نفسى ..
روضعتها على القرص .

ووصل الى سمعى صوته الرقيق الحلو يكرر الأنشودة وقد مآه
المرح والأمل :

ليلة العيد فى سناك وقفنا

موكبنا حافلا : بنات وغلله

ننشد الشعر والقلوب تغنى

فى حنايا الصدور الأفراح جمع

كل طفل فى كفه مصباح

ساطع الضوء كاشف للظلمه

ونهضت من مكانى لأرفع الأسطوانة .. وقد انهمر من عيني
الدمع ، ولكنى تسمرت فى مكانى ، وأصابتنى الدهشة .

فقد رأيت أن الصوت لم يكن قد انتهى بعد من أنشودته ، وأنه
ما زال يتم الأنشودة ، رغم أنه لم يكن قد ملأ منها الا الثلاثة الأبيات
السابقة .

وأصغيت الى الصوت وقد تملكنى رعب شديد ، ووصل الى
صوت الصبى يتمم الأنشودة فى صوت ملؤه الألم :
أه ! أمى ! ما حيلتى وسراجى
كل ما هم أن يضىء بهمه
صابه من غزير دمعك صوب
فانطفأ نوره وعاد لظلمه
ولم أشعر بعد ذلك بما حدث .

فقد سقطت مغشيا على .. ولم افق الا وزوجى يحملنى بين
ذراعيه ليضعنى على القراش ، وأخذ يربت على بعطف وحنان .
وهمست فى أذنه بما حدث .. فتملكته دهشة شديدة .. وقام
الى الأسطوانة .. ولكنه لم يجدها الا حطاما .. فقد سقطت عليها
عندما أصابنى الاغماء فتهشمت .
ومنذ ذلك اليوم يا سيدى .. وأنا لا أبكى قط .. لقد ملا الايمان
قلبى وأفعمت الطمانينة جوانحى .
وصمتت السيدة ولحت فى عينيها غشاوة دمع ما لبثت حتى
انجلت .. وعاد الى السيدة اشراق وجهها وبريق عينيها .

امراة شريفة

سيدي العزيز :

تري لو صادفت قصتي هوى فى نفسك ، فاقدمت على نشرها
لقرائك .. فإى عنوان تختاره لها ؟ ! وإى كلمات رنانة تكمل بها
هامتها حتى تغرى قراءك بقراءتها ؟

« امراة ساقطة ؟ » .. « قصة بغى ؟ » .. « بائعة الجسد ؟ » ..

إى خلعة من هذه الخلع الزاهية تنوى خلعها على .. دعنى
انتقى لك .. فانى أعلم مبلغ ولعك بالعناوين البراقة .. وماذا يضيرك
وأنت جالس فى عقر دارك تحرك القلم على وريقات بكلمات قد لا يكون
لها أقل اثر فى نفسك فتتال بها أجرا واعجابا .. وماذا يضيرنى من
أن تطلق على أسوأ الألفاظ وتنعتنى بأقبح النعوت .. هل يضير
الشاة سلخها بعد ذبحها ؟ ! لا .. لا .. يا سيدي .. سمى بما
شئت .. فما عاد فى جسدى بقية حس .. أو اثر شعور ..

أنا امراة ساقطة .. عاهرة .. بغى .. ! كل ما يخطر على بالك
من ألفاظ السوء .. اجعله نعتا لى .. فانى فعلا كذلك ..

السوء ! ما معنى السوء ؟ وما معنى أن يكون المرء سيئاً ؟ أنا
أفهم أن السوء هو أن تلحق الضرر بغيرنا عامدين .. أو نتمنى لهم
الشقاء والتعس ، ونكره لهم الخير ونحسد لهم على النعمة .. أنا
أفهم أن معنى أن يكون المرء سيئاً .. هو أن يرتكب السيئة ، والسيئة
هى كل ما ينتج شراً .

اليس كذلك يا سيدى ، أم أنا مخطئة ؟

وأنا امرأة سوء ما فى ذلك شك .. فقد أجمع الكل على أنى
كذلك ، وأكون حمقاء مجنونة لو حاولت انكاره .. ولكنى مع ذلك
عندما اخلو الى نفسى فى بعض الأحيان فأحاول أن التفت حولى لأرى
مبلغ ما بى من سوء أو أحاول نبش الماضى : .. لأنقب عما فعلت من
سيئات .. لا البت أن أصاب بحيرة ، وأقول لنفسى : اما أننى عمياء
بلهاء لا أستطيع أن ابصر بنفسى أو أدرك ما فعلت .. واما أننى لست
امرأة سوء .. وما كان فى كل ما اتيت به امرأه ولا فعل نكر .

اننى لا أتذكر قط انى حاولت أن ألحق ضرراً بأحد .. عامدة أو
غير عامدة .. انى ما تمنيت لأحد شراً ولا كرهت للناس خيراً ولا
حسدتهم على نعمة .. اننى لم ارتكب ما يصح أن يسمى سيئة
بمعناها الحقيقى .. فما أنتج فعلى شراً قط .. وحتى هذا الفعل
الذى ارتكبته - والذى يسمونه سيئاً - قد ارتكبته لأننى لم أكن
أستطيع إلا أن ارتكبه .. فقد كان السبيل الوحيد أمامى للعيش ،
فسلكته .

هل يهمك أن تعرف كيف سلكته أول مرة ؟ هل تظن هذا من
مستلزمات القصة .. أنا لست قصصية حتى أعرف ما يقال وما لا
يقال .. أو أعرف ما يشوق وما لا يشوق . ولكنى لا أظن أن هناك
ضرراً من أن أبدأ قصتى من تلك النقطة .. النقطة التى اندفعت

عندها الى الهاوية .. النقطة التى اُضحيت بعدها شيئا آخر غير
الذى كنته ، اُضحيت امرأة سوء تتردى فى الظلمات .

كان ذلك فى يوم ما زالت ذكراه واضحة جلية فى رأسى كأنه
الأمس فقط ، يوم شتاء هبت فيه موجة من البرد عاتية قارصة تحمل
فى جوفها قرا وزمهريرا .. واندفعت فى الطرقات الخالية لا الهوى
على شيء ، وتطاردنى الريح كأنها الذئب العاوية وقد حملت طفلى
على كتفى أحاول أن أجد لنا مأوى يقينا غائلة البرد .. ومررت برأسى
اذ ذاك صورة عابرة سريعة للماضى القريب ، الماضى الممتع الهنىء ..
الذى مر كأنه لمح البصر . أو كأنه حلم « فى الدجى ، أو خلصة
المختلس » .

خلصة المختلس ! ما أشد هذا الوصف انطباقا على .. وعلى
تلك اللحظات التى كنت أمتع بها ، أجل يا سيدى لقد كنت مختلسة .
وكانت سعادتى اختلاسا . وما ألهه من اختلاس . لقد اختلست
زوجى .. اختلسته اختلاسا . لأنه لم يكن لى الحق فى أن أقف
بجواره مرفوعة الرأس وأقول على ملا من الناس : « هذا هو زوجى »
.. لم يكن لى هذا الحق الذى لا أظنه الا حق كل أنثى تعتز برجلها
وتتيه به ، لأننى كنت أعيش كالجرذان فى باطن الأرض . أو
كالخفافيش فى حلكات الليل . ومع ذلك فقد كنت قانعة راضية ..
بل أكثر من هذا ، كنت مثلا لامرأة سعيدة هانئة .. ولكن ، ما أعجب
الحياة ! يقنع البعض منها بالزور اليسير فتأياه عليهم . وتغدق نعمها
على البعض الآخر فيكفرون بها .. لقد كنت من القابعين بقليل
وينعمتى المختلسة .. فأبتها على .. وحرمتنى أياها !

لقد كنت لا أجسر أن أقول انه زوجى ، لأننى كنت خادمته قبل أن
أصبح زوجته . ولقد كان كثيرا على أن أصبح زوجته فما كان لخادمة
أن تتزوج من سادتها وأبناء سادتها .

أقول كثيرا .. قبل أن تقولها أنت .. فأننى أعلم أنه شيء مفزع
أن يتزوج ابن السيد خادمته .. ولكنى فى قرارة نفسى لا أحس أنه
شيء كثير .. ألسنت انسانا يا سيدى ؟ اليس لى قلب انسان ..
واحساس انسان ؟ أم ترى الخدم من جنس والسادة من جنس آخر ؟
على أية حال .. لا أظن المجال مجال مناقشة فى مسألة كهذه ..
فخير لى أن أسوق لك الحوادث مجردة من التعليقات .. وعقب عليها
أنت كما تشاء .. فقط .. ليتك تنصفنى ، فما أحسست بالانصاف
مرة واحدة فى حياتى .

لقد أحببته وأنا صبية خادم .. وهو فتى فى مستهل شبابه
وريعان صباه على وشك أن يضع قدمته على أول درجات مستقبل
زاهر متفتح .. ولست أظن فى حبنى له عجبا .. فقد كان كل ما فيه
يحب .. خلقه وخلقه .. قلبه وروحه .. باطنه وظاهره .. كل شيء
فيه جميل محبب .. وقد كان من المحتمل أن تمر المسألة مروراً عابراً
.. وأن يظل مستكناً فى صدرى .. حب خادم لسيدتها .. حب
لا ينبغى له إلا أن يطوى فى الحنايا .. ويحبس فى الضلوع ..
لولا أن همسات القلب - على خفوتها وعلى محاولتى كتمانها - قد
وجدت لها سميعاً مجيباً .. ولولا أن داء الفؤاد قد وجد له من
الحبيب آسيا وطيباً .. لقد أحبنى الفتى السيد !

أتراد شيئاً يبعث على الدهش أن يحب سيد مثله خادماً مثلى ؟
مهما يكن الأمر فهذا هو ما حدث .. فالقلوب مجنونة .. ما خلق
الله فى الانسان أحقق منها ولا أخرق .. تندفع فى الحب بلا روية
ولا تفكير .. ما استطاع امرؤ قط أن يسيطر عليها أو يتحكم فيها ..
لقد أحبنى الفتى السيد ! كيف ؟ ولم ؟ .. لست أدري !
أترى كان بى ما فتنه وأغراه ؟ .. أترى كان بى جمال حرك قلبه .. ؟
كيف كنت وقتذاك ؟ .. ماذا أقول لك ، وليس من اليسير على المرء

أن يصف نفسه .. وخاصة المرأة .. اذا قالت جميلة فكل امرأة
تظن نفسها كذلك ، ، واذا تواضعت فانكرت على نفسى الجمال ..
عزت على نفسى .. التى لم ينصفها أحد .. حتى أنا ! على أية حال
لقد قالوا : « حسن فى كل عين من تود » وما دام الفتى قد أحببى ..
فلا شك أنى كنت نحسنا فى عينه .

قد تقول ان الفتى اشتهاى .. مجرد شهوة .. كما يشتهى
السادة خدمهم فى بعض الأحيان .. ولن أنكر عليك قولك فقد يكون
به شيء من الحقيقة ، ولكن ما الحب ؟ وما الشهوة ؟ هل يمكن أن
نجعل من كل منهما شيئا منفصلا ، ليس لأحدهما صلة بالآخر ..
هل الحب شيء والشهوة شيء ؟ لا أظن .. وأنا كامرأة .. أقول لك
ان الحب لا بد أن ينتهى الى شهوة والشهوة لا تطفئه بل تسقيه
وتنميه .. والا جف وذوى .. اما الشهوة فلا يثيرها الا من نحب ..
فالحب والشهوة شيان يتم أحدهما الآخر .. فلا حب بلا شهوة
ولا شهوة بلا حب . ولم لا أكون أكثر صراحة ، فأنبتك ان الحب يبلغ
أقصاه عندما تبلغ الشهوة أقصاها .

لا تقل .. حديث امرأة بغى .. فكلنا فى هذا الأمر سواء ..
البغايا وغير البغايا .. كل ما فى الأمر أننى فقط أجرو على قوله ،
وغيرى لا يجرو .

لقد أحببى الفتى السيد ! ولنفرض أن حبه قد بدأ مجرد شهوة ..
ماذا يضيرنى كيف بدأ .. ما دام قد أخذ يتطور ويتمكن فى قلبه على
مر الأيام ؟ .. وما دمت قد بدأت أجد لنفسى فى قلبه موقعا هو أقصى
ما أتمناه ؟ !

أجل يا سيدى ، قد يكون حبه بدأ مجرد اشتها .. ولكن الأيام
جعلت منه بعد ذلك حبا قويا مخلصا .. عنيقا جارفا .. لا يعوقه
حائل .. ولا تقف فى طريقه عقبة .

ولقد مرت الأيام وعلاقتنا - ولا أقول حبنا حتى أثبت لك بما لا يحتمل الشك أنه قد صار حبا - يطويها الكتمان ، حتى أحسست ذات يوم أنني قد حملت .. فتملكنى حزن وقلق وأحسست بخوف شديد .. وخشيت أن أصارحه .. خوفا من أن أحمله عبئا يرهقه ولكنه أحس بى قلقا .. والح فى معرفة السبب .. فأنبأته .

ولو كان احساسه نحوى مجرد شهوة . لأفزع الأمر ولحاول جهده التخلص منى .. ولأحس بى عبئا يثقل كاهله ويقوض ظهره .. ولو فعل ذلك لما أثار فعله شيئا من الدهش ، ولكنه لم يفعل .. بل أمسك بوجهي فى رفق بين يديه ومسح بشفتيه دموعا ترقرت فى عيني وسالت على صفحة وجهي .. وأنبأنى بصوت هامس أننا سنتزوج ! قول عجيب .. لا يصدق عقل ! فالرجال انانيون .. لا يسمعهم فى مثل هذه الأحوال الا أن يلقوا العيب على سواهم ويحاولوا التخلص منه بإقرب وسيلة .. ولكن الفتى لم يفعل .. بل سألنى الزواج .. ولا أظن هناك ما يمكن أن يبرر تصرفه .. أو يدفعه الى ما فعل .. الا شيئا واحدا هو الذى يدفع الانسان الى فعل كل عجيب وهو الحب .. أجل .. لقد كان يحبني ما فى ذلك شك .

ولم تكن مسألة الزواج من السهولة بحيث لا تعدو مجرد عرض - منه وقبول منى .. فقد كان علينا أن نتوقع ثورة من أهله .. ومن أقربائه .. وأصدقائه .. بل ومن كل انسان له به أدنى علاقة .. فما كان زواج فتى فى مثل مركزه بخادم مثلى بالشئ الذى يقبله العقل بسهولة .. وكنت أكره أن أعرضه لتلك العاصفة .. فقلت نه انى سأفر من الدار وسأبعد عن طريقه .. وأعرف كيف أدبر أمرى - ولكنه هز رأسه بشدة ، وأنبأنى أنه هو الذى سيعرف كيف يدبر أمرنا معا . ولقد استطاع فعلا أن يدبر أمرنا معا .. على خير حال ،

ودون أن نثير حولنا أية عاصفة ، فقد استأجر لى سرا شقة صغيرة
فى حى متواضع ، وقررت من الدار إليها ٠٠ وعقدنا زواجنا سرا ٠
وبدأت أحيا حياتى الجديدة ٠٠ التى قلت لك عنها ، انها كانت
جلسة المختلس ٠٠ ولقد كان كل همى وهمه أن نستتر أنفسنا ، فكان
يزورنى خفية فى أوقات متقطعة كأننا لصوحى نقتسم غنيمة مسروقة
٠٠ ولقد كنا فعلا كذلك ، لقد كنا نقتسم لحظات هنيئة سرقتها فى
غفلة من الزمن ٠

وكانت تمر بى أوقات تنتابنى فيها نوبات من الحزن عندما أخلو
الى نفسى فأرانى أحيا حياة الجردان ٠٠ وعندما أحس أننى لا أجرؤ
أن أقول أننى زوجته حتى لا أشين سمعته وأسبب له مهانة بين
الناس ٠٠ ترى أهنالك ما يحز فى النفس ويورثها الحسرة أكثر من
أن يجد الانسان نفسه مبعث مهانة ومصدر ازدراء لأعز الناس عليه
وأحبهم الى قلبه ٠٠ ومع ذلك فقد كنت سعيدة كل السعادة ٠٠ ان
كانت لحظات اللقاء تبدد تلك السحب القاتمة التى تتجمع فى نفسى ٠٠
وكنت أنسى كل شىء عندما أحس به يضعنى الى صدره ٠

وأخيرا وضعت طفلتى ٠٠ صورة طبق الأصل منه ٠٠ جميلة
التقاطيع ٠٠ نبيلة الملامح ٠٠ طبع على محياها ابتسامة جذابة ٠٠
لقد كانت ابنة السيد لا ابنة الخادم ٠

وملأت الطفلة حياتى بهجة وحبورا ٠٠ ولم أعد أحس بالوحشة
فى غيابه ، ولم تعد تضنيتى الوحدة كما أضننتى من قبل ، وقد سر
أيوها أيما سرور ، وأحبها حب عبادة ٠

ومرت الأيام وأنا قريرة العين هانئة ٠٠ قانعة بأحلام الدجى
وجلسة المختلس ، حتى أحسست فجأة أنى أفيق من الحلم لأجد
الزمن قد أبى على القليل الذى سعدت به ٠٠ ولأجده قد ضبطنى
متلبسة بجريمة اختلاس لحظات هنيئة فى غفلة منه ، فقبض على

عنقى ، ونزع غنيمتى من بين يدى . أجل لقد انتزع منى زوجى ،
أو قل لقد انتزع روحى ، وتركنى جسدا بلا روح .
لقد مات زوجى الحبيب . . . زوجى الذى ما جسرت فى حياته
أن أقول انه زوجى ، والذى كنت اذا ما ضممته الى صدرى انتابنى
احساس اللص يتسلل بغنيمته فى الظلمة يضمها الى صدره خشية
أن يستردها الشرطى ، وذهبت الى قبره لأبكيه ، لا كزوجة بل كخادم
فقد كرهت أن أنير حوله العاصفة التى تجنيناها فى حياته . . ثم
أى شيء سيعود على من أن أعلن أننى زوجته سوى سخط أهله
وغضبهم على . لا . لا . لا . خير لى أن أكون شجاعة فأحمل العبء
وحدى .

ولقد كان العبء يا سيدى ثقيلا . . ليس بالنسبة لى . . فلقد
كان على أن أحتمل الفجيعة ، وأن أصبر على قضاء الله . . وأتعود
الحلقة التى شملتني بعد موته . . أجل . . لقد كان الأمر - على
مرارته - محتملا بالنسبة لى . . ولكن . . عندما كنت أفكر فى
الطفلة . . كنت أحس بالاختناق .

هذه الطفلة العزيزة . . الجميلة النبيلة . . التى كنت أدبر لها
فى رأسى كيف أربيها وأنشئها نشأة السادة ، وكيف كنت أنوى أن
أجعلها ابنة أبيها . . وأن أجعلها خير الفتيات . . قد أضحيت
لا أكاد أعرف كيف أجد لقمتها .

وطردت من البيت بعد فترة من الوقت . . فقد كنت لا أملك أجره
وحملت مطلقتي أهيم بها فى الليلة الليلاء القارسة البرد . . لا أكاد
أجد ما يقينى سر البرد وغائلة الجوع .

ومرت بى الأيام . . طريدة شريفة . . أجول وأستجدى حتى
وجدتنى فجأة أقف أمام المسلك البراق والطريق الملىء بالأضواء . .
تغرينى أضواؤه بالدخول اليه . وبأن اكف عن أن أكون امرأة شريفة

تتصور جوعاً هي وابنتها .. ابنة السيد العزيز ، ولو كان الأمر يقتصر على لاستطعت أن أحتمل .. ولاستطعت أن أبقى شريفة مدى الحياة ، ولكن ابنتى يا سيدى ، ما ذنبها ؟ ما ذنبها ؟ هل أضحى بها .. لمجرد أن يقال عنى امرأة شريفة ؟ لا .. لا .. يجب ألا أكون أنانية .. انى أريد النقود لتربيتها ، والطريق أمامى ملىء بالنقود فلم لا أخوضه ؟

وبدأت حياتى الجديدة . ولم تكن بالسهولة التى تصورتها . فقد كانت حياة جهاد . لاقيت فيها الأمرين . ولكنى استطعت النجاح وأخذت أنتقل من درجة الى درجة . من امرأة شارع . الى امرأة بيت .. الى امرأة صالة .. الى راقصة ، وفى كل مرحلة من مراحل حياتى الفاجرة . لم يكن همى سوى جمع النقود لتربية ابنتى . ولقد نجحت كل النجاح ، واستطعت أن أربيها كابناء السادة .

أنا الآن يا سيدى امرأة فى خريف العمر . ولقد تخرجت ابنتى فى الجامعة .. نموذجاً للفتاة .. فى الجمال والكمال ، فى الخلق والخلق .. لا أقول ذلك لأنها ابنتى ، فكل من رآها قال عنها ذلك ، وكل من صادفها قال عنها انها مثل أعلى ، منزّه عن العيوب . اللهم الا عيب واحد .

ماذا تظن ذلك العيب ؟ خمن يا سيدى ؛ ما هو ذلك الشئ الوحيد الذى يقولون عنه انه يعيب فتاتى ! انها ابنة راقصة ! تصور يا سيدى أنتى ، أنا . ذلك العيب الوحيد .

تصور بعد هذا الذى فعلته . لا أكون بالنسبة لابنتى فى نظر الناس ، سوى شئ يعيبها ؟ . وهى تحس ذلك .. لا أقول انها تخجل منى ، فهى تحببني حبا جما ، وتقدرنى كل التقدير . وتعرف كل ما فعلت من أجلها ، ولكن كل ذلك لا يمنعها من أن تحس أن الناس يروننى شيئاً يشينها .. لقد خطبت ثلاث مرات . خطبها أناس

صادفوها فأعجبوا بها أيما إعجاب ، ولكنهم تركوها كلهم ، عندما علموا أنها ابنتى .

أنا حزينة يا سيدى ، وحائرة ، انى عقبه فى طريق ابنتى ، وبودى لو أزلت نفسى من طريقها ، حتى أتمم ما فعلت من أجلها ، ولكن كيف ؟ . بالانتحار ؟ لا أظن ، فسيثير ذلك ضجة من حولها تضرها كل الضرر .

ألا توجد طريقة للموت البطيء ، الموت الذى يبدو طبيعيا فلا يثير ضجة ؟ . اننى أحس اننى قد أدت واجبى . . وأن واجبى الآن هو أن أذهب عنها ، حتى أزيل عنها ما يشينها . هل من طريقة للذهاب يا سيدى ؟



هذا الخطاب من راقصة قديمة وصلنى منذ بضعة أشهر ، أيكانى فطويته . وتمنيت لو لم أكن متزوجا حتى أذهب الى الفتاة فاتزوجها وأنا رافع الرأس فخور بها وبأمها .

ولقد ألقنتى الظروف بعد ذلك فى طريق الفتاة . . فوجدتها مثلا أعلى ونموذجا للفتاة ، حتى هذا العيب الذى كان الناس يرونه بها ، قد ذهب ، لقد ماتت أمها ! كيف ماتت ؟ لست أدرى .

بقيت لى كلمة قصيرة ، دعونى أسوقها الى المرأة فى قبرها فقد يكون لها فيها عزاء . . ان كان الموتى يطلبون العزاء

سيدتى . . لقد اتهمتنى بأنى أحرك القلم على وريقاتى بكلمات قد لا يكون لها أقل الأثر فى نفسى ، سامحك الله ، فما كنت قط كذلك . . اننى لا أكتب الا حين أشعر . . . ما رأيك فى العنوان ؟ . اننى مقتنع به كل الاقتناع . . فانت امرأة شريفة . . بل أشرف امرأة صادفتها ، ولو قلت عنك غير ذلك لكنت أحق لا أعرف مقاييس الشرف !

افسرة عنفور

حدثنى صاحبى قال :

- دعنى أذكر لك كيف كنت فى صباى أسير فى محيط الظلمات .
ظلمات الفقر والوحدة والوحشة ، وكيف بارحت بلدتى الى القاهرة
وأنا صبى صغير لأتلقى العلم ، وكيف كنت أقطن فى حجرة رطبة
مظلمة أنا وخمسة صبية اقتطع اهلهم من أرزاقهم أجور تعليمهم
وأخذت أنتقل من مرحلة الى مرحلة وأنا مثل لتلميذ قروى فقير .
يبدو عليه الحرمان فى كل مظهر من مظاهر الحياة : الماكل والملبس
والمسكن . ومع ذلك فقد دأبت على السير .
واستطاع الأهل أن يقتروا على أنفسهم ليقتصدوا ما يكفى لدفع
المصروفات . حتى رزئت بموت أبى ، وهنا كان أمامى أن أسلك
أحد طريقين : إما أن أعود الى القرية متناسيا تلك المرحلة التى
قطعتها من مراحل التعليم ، وإما أن أكافح وحدى حتى أصل الى
نهاية الطريق ، ولم يطل بى التفكير حتى اخترت الأمر الثانى اذ كان
من العسير على وقد قطعت نصف المرحلة أن أعود أدراجى الى حيث
كنت .

وبدأت كفاحى ٠٠ كفاحى من أجل لقمة العيش ٠٠ وكنت وقتئذ
فى السنة الرابعة الثانوية والتحقّت بعمل قافه كنت أكاد أحصل منه
على ما يقيم أودى ٠
وأخذت فى الاستذكار حتى استطعت الحصول على شهادة
الدراسة الثانوية ٠

ومرت بنى الأيام فوجدتني أخوض غمار وسط جديد ٠ اذ حاولت
أن أجد من الصحافة موردا للرزق ٠٠ وكنت أعرف زميلا لى يكتب
فى احدى المجلات أخبار المسارح والصلوات ويحصل من ذلك على
أجر زهيد ما كان أحوجنى الى مثله فى ذلك الوقت ٠

وبدأت أترسم خطاه ، وكان الأمر يحتاج منى أن أندفع الى هذا
الوسط الغريب عنى ، وأن أختلط بأهله وأتبع أخبارهم ٠٠ ولست
أكتمك أنه لم يكن أحب الى نفسى من ذلك ، فقد كان الوسط - على
انحطاطه وفساده - مليئا بالفتنة والاغراء ٠٠ ولم يكن أسهل على
نفس فتى قروى فقير محروم من الاندفاع الى حيث يجد الفتنة
والاغراء ، ورغم ذلك فقد كنت حكيما ، متندا ، فلم أنزل كل الانزلاق ،
ولم أجعل من عملى فى ذلك الوسط الا وسيلة تعيننى على الحياة
وفى وسط تلك الظلمات الحالكة - التى احتاطت بى - بدت لى
فى الأفق بارقة تستدعينى ٠٠ انا الذى لم تسنح فى ظلماته بارقة
ولا أشرق سنا ٠

رأيتها أول مرة تغنى فى احدى الحفلات الخاصة وأستطيع أن
أؤكد لك أنه لم يكن بها جمال خارق أو فتنة صارخة ٠٠ بل كانت
تتساوى مع غيرها من المطربات والراقصات اللواتى طال عهدى
بهن حتى أضحين لا يحركن فى ساكننا ٠٠ وباتت نظرتى
اليهن لا تزيد عن نظرتى الى الدمى والعرائس الخشبية ٠ ولكن مع
ذلك لم أكد أنظر اليها وأستمع لقنائها حتى غمرنى احساس جارف

قوى يدفعنى الى أن اذهب اليها فأحتويها بين ذراعى • لقد شعرت.
أنها مخلوقة ، مرهفة الحس ، تختلف كثيرا عن هؤلاء الزائفات
التافهات اللاتى تعودت أن القاهن فى هذا الوسط • وأقبلت عليها فى
شوق ولهفة ، وأنا اشعر فى قرارة نفسى أن هذه المخلوقة لى ، وانى
وحدى مالکها وصاحبها • ولم يخدعنى حسى فقد أقبلت على هى
الأخرى • • وأدركت من نظراتها أننى أعنى شيئا لديها • • فعلاثنى
النشوة واستخفنى الطرب ، وخاصة أننى لم أكن بخير الحاضرين
لا شكلا ولا موضوعا حتى تخصصنى وحدى بذلك القدر من الاهتمام
والاقبال التى شملتتنى بهما •

ومنذ تلك الليلة أصبحت غريق هوى • • فأنغمضت عينى الا عن
صورتها ، وتصاممت الا عن صوتها • وأخذت أدبر أمرى باعتبار
أنها شيء لا أستطيع العيش بدونه • • وبدأت أفكر جديا فى زواجها • •
ورغم أننى كنت واثقا من حبها لى ومن أنه لا يسعدها شيء كزواجنا
• • فقد ترددت فى الأمر كثيرا ، لا لأنى لم أجدها كفتا لى ، بل لأننى
لم أكن كفتا لها • • أجل ! انى لم أكن أملك المال الذى يهيم لها
الحياة التى تتوق اليها ، أو على الأقل يجعلها تعيش كما هى فى
بساطة من العيش وفى رغد من الهناءة •

وفى ذلك الوقت بدت لى فرصة سانحة لى أكون خيرا مما أنا ،
ولكن كان يتحتم على أن اغادر القطر ابضع سنين • • ودفعنى أمل
الشباب وحافز الحب الى أن أقدم على السفر حتى أعود وبينفسى
تلك الثقة التى كنت أفقدها وقتذاك •

وانبأتها بما عزمت عليه • • فأصابتها الدهشة وحاولت أن تثنينى
عن السفر ، ولكنى قد حزمت أمرى • • وأخيرا افترقنا وبينفسينا
لوعة • • وهمست فى أذنى أن صورتنى لن تفارق مخيلتها ، وأنها
ستذكرنى فى كل لحظة • • وأنها ستعد الأيام حتى أعود •

ولست أدري كيف ينقلب عزم الانسان فيتحول فجأة الى ضعف
وتخاذل . . انى لم اكّد أبداً الرحيل يا سيدي حتى أحسست بانني
فجائي ، وبحنين الى صاحبتى . . وأخذت أسائل نفسي : أى حمو
دفعنى الى الرحيل ؟ . لم لم أمكث معها وأنعم بقربها حتى يفعل
القدر بنا ما يفعل ؟

ولم تكن هناك فائدة من هذا التخاذل فقد قضى الأمر . ولم يكن
على الا أن أتماسك واحتمل الرحيل ، وإن أحتمل كذلك فرقة الأعوام
الطويلة .

ولك أن تتصور يا سيدي كيف مرت بى الأعوام فى غربتى مليئة
بالرحشة والكآبة . . يعصف بى الحنين ويضننى الشوق . ولم
تبارح صورتها مخيلتى لحظة واحدة . . أراها فى كل ما أبصر
وأحس بها فى كل ما أفعل .

واعتنق الغصن الرطيب لقدمها

والثم ثغر الكأس أحسبه فاها

لا يكاد يعيننى على الفرقة الا رسائلها الحارة الملتهبة ، والتي لم
تنقطع الا قبل عودتى ببضعة أشهر كنت خلالها أتقلب على جمر
القلق ونيران الآسى . . وأخيرا حل موعد العودة ، ولا تسال عما
كنت أحس به من اضطراب أثناء عودتى ، وكيف أصور لنفسي
لقاءها . . ماذا أفعل ، وماذا تفعل هى ، وأرسم فى ذهني التفاصيل
والحداوير وأحس منها بنشوة وممتعة .

ووصلت الى القاهرة . . وذهبت الى دارها . . وسألت عنها . .
فقيل لى انها انتقلت من الدار ، وأحسست بالخيبة . ولكن لم يكن
من العسير على أن أعرف عنوانها الجديد . فانطلقت اليه . . وطرقت
الباب ، فأجابنى صوتها ، أجل صوتها هى ، فقد نفذ الى قلبي فجعله

يكاد من فرط الطرب يرقص ، وفتحت الباب ، ووقفت أمامي بلحمها
ودمها بعد طول غيبة .

ونظرت الى في دهش شديد . وتراجعت بضع خطوات قدلفت الى
الداخل ووجدت في الجو شيئا غريبا لم أقهه . . شيئا استطعت
أن أحس به ، ولكنني لم أدرك كنهه . . شيئا بدا لي جليا من نظراتها
المليئة بالدهشة التي يشوبها شيء من الذعر ومن لقاءها الذي لم أكن
أتوقعه .

واندفعت اليها أضمرها الى صدري فقد خيل الى أن الأمر كله
ليس الا مظهرا لمفاجأتى لها . . ولكني أحسست بها تتخلص من بين
ذراعى وتدفعننى بهدوء ثم تنبئننى أنها قد تزوجت . . تزوجت ؟ ! هي
تزوجت ؟ أيمن أن يكون هذا معقولا ؟

أية صاعقة انقضت على رأسى فتركتنى فاقد الحس غائب الوعى .
من يكون ذلك الشخص الذى احتواها حتى لفظتنى من أجله ؟
لقد كان صاحب المسرح الذى تعمل به !
ووقفت أمامها ، شاردة حائرا ، جامدا مذهولا .

أي يا سيدى لو أدركت المشاعر التى كانت تصطبغ في صدري
وقتذاك . . وأنا أرى حبيبة العمر التى شددت قلبى اليها وربطت
مصيرى بمصيرها وخسذلتنى ولفظتنى لفظ النواة . . وأنا الذى
أثرت الغربة والفرقة لكى أستطيع أن أهيم لها الراحة والهناء .
وانتابتنى فجأة ثورة من الغضب . . عاصفة عاتية . . وتبدد
الحب من نفسى فانقلب بغضا شديدا . . وتملكتنى رغبة جامحة فى
أن أحطمها كما حطمتنى ، وأمسكت بها بين يدي أهزها هزا عنيفا .
ووقفت تنظر الى وقد تملكها زعر شديد . وحبست الكلمات فى
صدرها ، فلم تستطع النطق . وحاولت عبثا أن تتخلص من بين
ذراعى ، وأخيرا دفعتها دفعة قوية ألقت بها على الأرض .

وعندما سقطت اصطدم رأسها بأنيّة نحاسية قد وضعت فى ركن
الغرفة ٠٠ ووقفت لحظة أهدق فيها وأنتظر أن تنهض أو تتحرك ،
ولكنى لم أر فيها عضلة تختلج ٠٠ بل رأيت الدم يسيل من جرح فى
مؤخرة رأسها . فأحسست بأطرافى تتجمد ووقفت برهة لا أحرك
ساكنًا ولا أحس بشيء ٠٠ فقد كنت فى حالة ذهول تام ، ثم بدأت أفيق
لنفسى ، واقتربت منها أتحمسها بيدي ، فإذا هى جثة هامدة
لا حراك بها !

هل سبق لك أن قتلت انسانا يا سيدى ٠ ٠ وأى انسان ؟ انسان
تجد فيه توأم روحك ونصف نفسك ؛ طبعًا لا ٠ اذن فمن العبث أن
أحاول أن أبين لك مشاعرى فى تلك اللحظة المخيفة ٠٠ لحظة أن
اكتشف أننى قتلت صاحبتى ، لقد اجتاحت نفسى عاصفتان من
المشاعر : عاصفة من الشعور بالوزر والخوف الشديد من نتائج ،
وعاصفة أخرى من الحنين القوى والحب الجارف ٠

ومضت لحظة وأنا ثابت فى مكانى تنتابنى الأحاسيس المتناقضة
المختلفة . وأخيرا تغلب الشعور بالخوف وطرد من نفسى كل ما عداه
من المشاعر ، فوجدتنى أتسلل من الغرفة . تاركًا كل شيء على ما هو
عليه . وانطلقت من الدار هاربا ٠

انطلقت فى طريقى ٠٠ مجرما يطارد شبح جريمته ، وقاتلا تقض
مضجعه الوسواس وتلاحقه الأوهام ٠

وفررت من القاهرة الى احدى القرى النائية . ومرت الأيام وأنا
قابع فى مخبئى منقطع عن العالم تمام الانقطاع حتى بدأت نفسى تهدأ
بعض الشيء ٠٠ ثم ألقت بى الظروف الى رجل طيب يملك مطبخنا
لطحن الغلال ، فاستخدمنى كاتبًا فى مطبخه ، وأحس الرجل
بالاطمئنان الى وأحسست بالاطمئنان اليه ، فوثقت عرى الصداقة
بيننا وازدادت ثقته فى على مر الأيام ٠٠ وسرنى منه انه لم يحاول

أن يزج بنفسه فى ماضى ، ويثقل على بأسئلة قد أجد منها حرجا ،
بل أخذنى على علاتى ، وقبل بسهولة تلك الرواية التى رويتها عن
نفسى ٠٠ والتى أخفيت منها كل ما قد يكشف عمن أكون ، أو عن
الجريمة التى خلقتها ورائى ٠

وكانت للرجل ابنة ، لم أكن أرى فيها أكثر من طفلة لاهية ٠٠
ولم أحاول أن اتخيلها أكثر من أنها طفلة لاهية ، وإن كانت هى فى
الواقع أكثر من ذلك الخيال ٠٠ أجل لقد كانت من نوع عجيب ٠

أتدرى ذلك النوع من الفتيات التى إذا ما قلت عنها ابنتك
صدقوك ، وإذا ما قلت عنها زوجتك لم يكذبك أحد ؟ ذلك النوع الذى
يطالعك من وجهه طهر الطفولة وبراءتها ، ويبهرك من جسده سحر
الأنوثة وطغيانها ٠٠ لها وجه طفلة على جسد امرأة ٠٠ ذلك الشعر
الذى ينساب على ظهرها انسياب الغدير ، وهاتان العينان الصافيتان ،
وثغرها المتلألئ وجسدها المفتلىء المشوق الذى يفيض بالحياة
والذى يجعلها لا تسير كما نسير ٠٠ بل تقفز وتتوثب

لا تظن وصفى لها وصف معجب مأخوذ ٠٠ فانى يا سيدي قطعاً
لم أكن أنوى أن أشتبك معها فى معركة غرام ، لأنى - كما قلت لك -
لم أكن أرى فيها أكثر من طفلة ، وفوق ذلك لم أكن قد أفقت بعد من
حبى الأول ولم أكن فى حالة من راحة الضمير وهذوء النفس بحيث
يسهل على أن أقدم على هوى أو أقع فى غرام ٠

ومع ذلك ٠٠ ومع كل ما سلف ذكره ٠٠ وقعت فى الشرك ٠٠
لا تسلى كيف ؟ لا تسلى لم ؟ إلا إذا كنت تسمح لنفسك أن تسأل
مجنونا لم جن ، أو ميتا لم مات ؟ هذا قضاء الله ولا راد لقضائه ٠
وبدا الأب بدوره يحس هوائى ، وبدأ لى من تضيقه الخناق علينا.
أنه يخشى مغيبته ، فوجدت من الخير أن أشعره أننى لا الهو وأنى
أرغب فى الزواج من ابنته ٠٠ وبدأت المح له بذلك فلقيت منه ترحيباً ٠

وتتمت الخطبة بيننا ، وكان كل ما حولي يبعث على الاطمئنان والهدوء . . ولكننى مع ذلك كنت أحس قلقا ، وكان يخيّل الى دائما أن ذلك الهدوء الذى يحيط بى ليس الا الهدوء الذى يسبق العاصفة ، وكنت أعتقد فى نفسى اعتقادا جازما أن العاصفة آتية لا ريب فيها . . عاصفة جارفة لا تبقى ولا تذر .

وكان المقروض أن حب صاحبتى سيخفف عنى شعورى بالوزر ، ويذهب عنى وطأة الضمير . . ولكنى رأيت الأمر على النقيض ، فقد بدأ الاحساس بالجرم يتضاعف .

واستمر قلقي يتزايد لحظة بعد لحظة . . ويوما بعد يوم . حتى كان ذات يوم وقعت الواقعة فقد أبصرت شرطيّين يقبلان على . . فأحسست برجفة . . وانتابنى فزع ، ورغم أن الشرطيّين لم يكونا قد قدما الا لمخالفة تافهة وقعت من المطحن ، الا أننى لم أتريث حتى أعرف سبب قدومهما . . بل أيقنت أنهما قد حضرا ليقبضا على ، واندفعت كالمجنون الى صاحب المطحن . . لأعترف أننى القاتل . . وأذكر له قصتى ، وأقول له اننى قد خدعته ، ووقف الشرطيّان ينظران الى فى دهشة كأننى مخبول أو مجنون . . ثم أنبأنا عن سبب قدومهما .

وكدت أصعق يا سيدى ، ومع ذلك فأنى لم أندم ولم أتراجع . . الى متى أظل هكذا مثقل الضمير مرتعد الأوصال ؟ الى متى هذا الفزع الدائم والخوف المستمر ؟ ماذا يمكن أن يصيبينى أكثر مما أنا فيه ؟ أن الموت خير من توقعه . . والسجن أفضل من انتظاره ، أجل ! لا شئ هناك شر من هذه الوساس التى تنهش صدرى .

وقادونى الى المركز . . وأودعت السجن فى انتظار ما يسفر عنه استفهامهم عن حقيقة الجريمة من محافظة القاهرة ومر يومان وأنا ملقى فى السجن جسدا بلا روح . وفى صباح اليوم الثالث ،

طلبنى المأمور ، لا ليرسلنى الى سجن القاهرة ، بل ليطربنى من أمامه
شر طردة ٠٠ وينذرنى بالآأحاول ازعاجهم بالتبليغ عن جرائم وهمية
بعد ذلك ، فان المطرية المذكورة قد ماتت حقا ، ولكن وفاتها كانت
طبيعية ٠

أية دهشة تملكتنى وقتذاك ؟ كيف استطعت أن احتفظ بصوابى
فلم أجن ؟ لقد سرت فى طريقى شاردا ذاهلا ، وتوجهت الى بيت
الرجل صاحب المطن ٠٠ فاذا به يوصد بابه فى وجهى ٠٠ ويطربنى
شر طردة ، لأنه لم ير فى الا أحد رجلين : اما مجرم أو مجنون ! ٠
ولقد كان الرجل معذورا حقا ٠

ونذهبت أهيم على وجهى عائدا الى القاهرة ٠٠ ذليل النفس ،
كسير القلب ٠٠ وساقتنى قدماى من حيث لا أشعر الى بيت صاحبتى
الأولى ٠

لقد وجدت الدار قفرا بلقعا ٠ لقيت بها زوج صاحبتى ، صاحب
المسرح ، وقد طوته الوحدة والوحشة وبدا محطما مهتما ٠٠ ورحب
بى الرجل وجلسنا نتحدث عنها ٠٠ وفجأة رأيته يرفع رأسه ثم يقول :
- لقد أكرمت فى حقك وفى حقها ٠٠ لقد سلبتك اياها وسلبتها
اياك ٠٠ لقد كنت أريدها فمنعت عنها رسائلك فى الأشهر الأخيرة
وأنباتها أنك قد تزوجت ٠٠ وظللت بها أغريها بزواجى وأضيق عليها
الخناق حتى قبلت ٠٠ ولكنى كنت أحمق ٠٠ فما استطعت قط أن
أستولى على قلبها فلقد ظل ملكا لك ٠٠ انها ما نسيتك لحظة واحدة ٠
وأحسست برعدة فى بدنى وغصة فى حلقى ، ووجدتنى أسأله
بصوت مبجوح ، ذلك السؤال الذى ليس هناك أدرى منى بإجابته :
« كيف ماتت ؟ ! » ٠

فأجاب :

- لقد عدت الى الدار ذات يوم فاذا بها ملقاة على الأرض تلفظ

أنفاسها الأخيرة وقد أصيبت بجرح فى رأسها ٠٠ وفى سكرة الموت
انبأتنى أنها أحست باغماء وأنها هوت الى الأرض ٠٠ فلقد كانت
حاملة ٠

وصمت كاللنا فلم ننس بينت شفة ٠
آه يا سيدى لو تعرف كيف أدمى قول الرجل قلبى ٠٠ ومزق
حشاى !

وشرد بى الذهن فتخيلت جسدها مسجى أمامى بلا حراك ٠
يا للمرأة الوفية الغفور ٠٠ !
لقد لفظت حبها فأبقت على حبى ٠٠ لقد سلبتها الحياة فمفحتنى
الحياة ٠٠ لقد أبيت عليها المغفرة فسمحت لى بالمغفرة ٠ وأية مغفرة !
آه لو كان الموتى يفتدون ٠٠ لافتديت قلامة ظفرها بكل عمرى !

امـرأة...

لنجعلها أقصوصة رمزية ٠٠ حدثت فى قديم الزمان ٠٠ ولنجعل
حوادثها تقع فى الصين أو فى الهند أو فى أى مكان ٠٠ لأن الزمان
أو المكان ليس لهما تأثير يذكر فى مثل هذه القصة ٠٠ إذ لا شك أنها
قد حدثت ، وتحدث ، وستحدث فى كل مكان ، وفى كل زمان .

ابطالها ثلاثة : زوج كهل ذو مال وجاه وسلطان ٠٠ وزوجة فتية
ذات جمال وسحر وفتنة ٠٠ وتابع – صديق أو أجير أو ليكن من كان
– فى ربيع العمر ومستهل الحياة ٠٠ يفيض منه الشباب ويمتلئ
بالقوة .

هذا هو الثالوث ٠٠ الذى لا يكاد يلتقى فى هذه الحياة – وكثيرا
ما يلتقى – حتى يكون قصة ذات وجهين ٠٠٠ أو ذات موضوعين :
حب ٠٠ وخيانة ٠٠ حب بين الطرفين الثانى والثالث ٠٠ ينتج عنه
خيانة للطرف الأول .

ولا أظن من العجب أن ينتج لقاء هذا الثالوث قصة ٠٠ وأن ينشأ
عنه الحب وتقع الخيانة ٠٠ لأن هذا شئ لا يمكن أن يقع ، الا اذا
كان يدهشنا أن نشعل ثقابا فى مادة ملتهبة ٠٠ فتضطرم النار ٠٠

ولكن العجيب حقا هو ألا يرى النار مشعلها ٠٠ وأن يكون أجهل
الناس بالقصة التى تجرى حوادثها تحت بصره هو بطلها الأول ٠٠
أو ضحيتها الأولى .

وفى قصتنا هذه لا يبدو البطل ٠٠ أو الضحية خيرا من سواه فى
بقية القصص المماثلة ٠٠ أو على الأقل هذا ما كان يخيل لمن كان حوله
من الناس ٠٠ فهو فى غفلة عما يجرى بين زوجته الحسناء وتابعه
الشاب ٠٠ لا يكاد يحس شيئا مما تلوكه الألسن وتتشدق به الأقواء
٠٠ ولا يكاد يشم رائحة لغدر أو خديعة ٠٠ فهو قرير العين ناعم
البال ٠٠ لا يظن بامرئ شرا ولا يتوجس خيفة .

نقول أن هذا هو ما كان يخيل الى الناس ٠٠ حتى حدث بعد
ذلك ما أثبت أنهم كانوا فى ظنهم جد مخطئين ٠٠ جد واهمين .
فى ذات يوم أعلن الرجل « الأمير » عزمه على الخروج الى الصيد
٠٠ وأمر رجاله أن يشدوا رحالهم ويحزموا أمتعتهم وأن يأخذوا معهم
ما يحتاجونه من مؤن ومياه ٠٠ إذ أن رحلتهم ستطول بعض الوقت ،
فقد كان فى نيته أن يجول جولة طويلة وسط الغابات .

وسار الركب يتوسطه الرجل ٠٠ طويل القامة نحيف الجسد ٠٠
قد وخط الشيب شعره ٠٠ وأخذت التجاعيد مكانها من وجهه ، وعن
يمينه زوجته الصبية الفاتنة ٠٠ بشفتيها القرمزيتين الممتلئتين وأنفها
الدقيق وبشرتها الشديدة النقاء ٠٠ وجسدها الذى يحس الناظر اليه
سخونته دون أن يمسه ٠٠ والذى يشعر بدفئه دون حاجة منه لأن
يحتويه بين ذراعيه ٠٠ فهو أشبه بجمره ملتهبة تشع بالحرارة
والدفء ٠٠ فهى امرأة قد لا نخطئ كثيرا إذا ما سميناهما : « امرأة
ساخنة » .

وعن يساره سار تابعه الوفى الأمين ٠٠ دقيق تقاطيع الوجه ٠٠
حلو الملامح ، قوى الجسد ، متين البنيان ، وقد رمى ببصره الى الأفق

البعيد ٠٠ وان كان لا يفتأ يلقي بين آونة وأخرى بنظرات خاطفة الى وجه الرجل السعيد المغتبط : ٠ وجه المرأة القلق المتبرم ٠٠ الذى كان يبدو فيه واضحا مدى نفورها من الرحلة وعن وعثاء السفر .
وطال بهم الرحيل ٠٠ ومرت بضعة أيام والقافلة جادة فى السير ٠٠ والرجل كما هو ٠٠ يكسبو وجهه قناع من الرضى والغبطة ، وامراته المخلصة عن يمينه ، وتابعه الوفى عن يساره . ممعنا فى السير لا تبدو عليه نية وقرف ٠٠ حتى بدا القلق والتبرم الذى يلوح على المرأة ينقلب الى خوف حبيس يعتمل فى نفسها ، وتبدو بوادره فى تلك النظرات الحائرة التى تتبادلها مع الفتى من وراء ظهر الرجل .

وأخيرا ٠٠ وبعد أن عيل الصبر ٠٠ ونفذ الاحتمال ٠٠ اشار الرجل بالوقوف ٠٠ فتنفست المرأة الصعداء ، وأحست بالكثير من الراحة ٠٠ الراحة الذهنية ٠٠ فقد أدركت أن الفرصة ستسنع لها بأن تفضى الى الفتى بتلك الهواجس ٠٠ التى اضطخت فى صدرها طوال الطريق ٠٠ والتى منعها ظل الرجل القائم بينهما من أن تفضى اليه بشيء منها ٠٠٠

وأمر الرجل بأن تنصب الخيام ٠٠ فوضعت خيمة له فى الوسط ، وخيمة لامراته على يمينها ٠٠ وأخرى لتابعه على اليسار ٠٠ أما بقية الحاشية فقد وضعت خيامها على مسافة بعيدة بعض الشيء .
وكان الظلام قد أقبل ٠٠ فأمر الرجل بأن يذهب كل الى خيمته ليستريحوا ٠٠ ثم يبدأوا الصيد فى الصباح .
واستقر القوم فى خيامهم ، وأغمضوا جفونهم وراحوا فى سبات عميق ٠٠ وخيم على المكان سكون الليل ٠٠ حتى تنفس الصبح ٠٠ فاذا بأصوات تشق أجواز الفضاء ، واذا بالمرأة قد أقبلت على زوجها فزعة مرتعدة ، وهى تصيح فى صوت مرتجف :

- لقد قضى علينا ٠٠ لقد أوقع بنا اللصوص الخونة ٠٠ لقد ذهب
الرجال جميعا حاملين معهم كل شيء ٠٠ وتركونا بلا ماء ولا غذاء ٠٠
تركونا لنلقى حتفنا في هذه البقعة المفقرة الوحشة ٠٠ لقد أخذوا
معهم كل شيء .

وفى نفس اللحظة أقبل الفتى صائحا فى دهش وفرع :
- يا سيدى لقد تأمر علينا الرجال ٠٠ لقد فروا فى جنح الليل ٠٠
وتركونا ليفتك بنا الظما والسفب .

وقام الكهل من فراشه ببطء وأشار اليهما أمرا أن يكفا عن
الصياح وقال فى هدوء : « لم يفر الرجال ! أنا الذى أمرتهم
بالعودة ! » .

وبدرت من الاثنين صيحة دهش ، وفغر كل منهما فاه ، وحملق
بعينيه متسائلا . وأردف الرجل يقول بلهجته الهادئة :
- ان هناك أمرا أريد تسويته بيننا . ولست أرتب أن يبلغ أذان
الرجال منه شيء .

وقهعت المرأة . وفهم الفتى ٠٠ وشحب وجهاهما شحوبا شديدا
٠٠ واستمر الرجل يقول :

- سأخرج عن التلميح الى التصريح . وسأفصح لكما كل
الافصاح ٠٠ ان المرجفين يتحدثون عن أشياء شائنة تجرى خلف
ظهرى ٠٠ ويقولون ان امرأتى قد خانت العهد ولوشت بالأقدار ذيلها
وذيلى ٠٠ اتريان فى قولهم حقا ؟

وأجابت المرأة فى صوت مبحوح وأنفاس مبهورة :
- انهم فى قولهم لكاذبون ٠٠ أقسم أنها أراجيف باطلة كاذبة .
وأنها زور وبهتان .

وحول الرجل نظره الى الفتى قائلا :
- وأنت ٠٠ ما قولك ؟

وصمت هذا برهة قبل أن يجيب فى صوت خفيض :
— لا فائدة من الإنكار .. لقد حدث ذلك الشيء الذى دار بخلدك ،
والذى تحدثت عنه الناس .. لقد حدثت تلك الأشياء التى وصفتها
بأنها شائنة .. وأنها خيانة للعهد وتلويث بالأقذار ، وإن كنت أرى
أن الألفاظ التى استعملتها ليست ملائمة تماما .. ولكن ماذا تنبىء
الألفاظ .. وماذا تستطيع أن تغير من حقيقة الواقع .. ما دامت
الأشياء قد حدثت فعلا .. ولكنى أود أن أقول لك أن من الخطأ أن
تلقى تبعة ما حدث عليها هى .. أو على أنا .. لقد كنا مسوقين
مقودين .. مسلوبى الإرادة .. فاقضى التصرف .. حمل القدر
لومك إذا أردت اللوم .. فقد شدنا بوثاق ودفعنا دفعا إلى هسذا
المصير .. لقد وهبنا للحب .. وكان من العسير علينا أن نرد الهبة .
وأجاب الرجل بصوت يقطر مرارة :

— هبة القدر .. لقد دفعت أنا ثمنها غاليا .. لقد أعطاكما القدر
هبة من حسابى الخاص . ولكن ألم أهب لك أنا من قبل كل ما
استطعت ! ألم أطعمك من جوع وأؤمنك من خوف ! ألم أنتزعك من
برائن الشقاء لأجعلك لى ابنا حبيبا وتابعا وقيا ! ؟ لشد ما كفرت
بنعمتى وكنت من الجاحدين . ما أشبهك معى بتلك الأقعى التى كان
منقذها أول من لدغ منها .

ثم التفت إلى المرأة موجهها إليها الحديث فى سخرية اليمه :
— وأنت .. أنت أيتها الطاهرة النقية .. المخلصة الوفية . هل
تمتعت أيضا بهبة القدر ؟ . أو لم يكفك ما وهبت لك من عطف وحب ،
وما هباته لك من حياة ناعمة راضية هانئة ؟

ثم اشتدت لهجته وبدأت فيها رنة غضب مكتوم حين أرى قائلا :
— ولكن ما لنا وللتأنيب والتثريب ، وماذا يجدينا الكلام بعد أن
وقعت الواقعة . والكلام لم يعد وسيلة للعلاج لأن علاج الفعل يجب

أن يكون فعلا مثله ٠٠ أجل ليس أمامنا الا أن نمحو العار ونغسل
الخطيئة ٠٠ ليس أمامنا الا أن نذكر قول القائل :

« خير للإنسان أن يموت شريفا من أن يعيش بلا شرف » *

وبدا الفزع على المرأة وهمست فى نبرات مرتجفة :

— لست ٠٠ لست تنوى قتلى ؟

وتقدم الفتى بخطوات ثابتة ٠٠ وقال :

— اذا كان لا بد لك من أن تريق دما على جوانب شرفك الرفيع
حتى يسلم من الأذى ٠٠ فليكن ذلك الدم دمي ٠ واذا كانت هناك
جريرة فضعتها فى عنقي واطركها هى ٠٠ لأنها لا ذنب لها ٠

وهز الرجل رأسه ببطء وقال بصوت ملهى بالياس :

— بل الذنب كله ذنبها ٠٠ لقد كانت هى منبع الشر وأصل
الخطيئة ، وهى التى يجب أن تستأصل ٠٠ اما أنت فسأضع مصيرك
بين يديها ٠٠ انها هى التى ستقرر موتك أو حياتك ٠

وحملق الاثنان فيه بدهش وذهول ٠٠ ولم يفهما ما يعنيه بقوله
٠٠ واختفى برهة ٠٠ ثم عاد وقد حمل فى يده جرة ماء ، ووجه
الحديث الى المرأة قائلا :

— هذا هو كل ما تبقى لنا من الماء ، وهو يكفى لأن ينقذ واحدا
منا حتى يعود الى المدينة ٠٠ أما الباقيان فلن يكون أمامهما الا
الموت ظلما فى هذه البقعة المقفرة ، وستكونين أنت أحدهما ، أما الثانى
فعليك أن تختاريه ٠٠ أجل ! أعطى الجرة من تشائين ٠٠ اعطيه
الجرة فيذهب هو وأموت أنا بجوارك ، أو اعطنيها فأعود أنا وأترككما
لتموتا سويا ٠

وبدا على المرأة ذهول وتحجرت عيناها فى مقلتيهما وهى تحملق
فى الجرة ، وبدت شفتاها جافتين باهتتين ولم تنبس ببنت شفة !
واستمر الرجل فى قوله :

- فكّرى جيدا ٠٠ انك تملكين فى يدك حياة أحدها ، أنا لا اطلب منك أن تجيئى الآن ، بل سأعطيك فرصة للتفكير ٠٠ عودى الآن الى خيمتك ، وسننتظر حتى تهبط الشمس ، وعليك حينئذ أن تقررى ما تشائين .

وعادت المرأة الى خيمتها وقد حملت الجرة ، وبدت فى مشيتها مهذمة محطمة ، وسار الرجل والفتى كل الى خيمته .

ومرت الساعات فى سكون مطبق مخيف ، وجلس الفتى وقد دفن وجهه بين يديه واستغرق فى تفكير عميق ٠٠ ليبتها تعطى الرجل الجرة ٠٠ حتى يموت هو بجوارها ٠٠ ليبتها تفعل ذلك فليس أحب الى نفسه من أن يموت معها ٠٠ ولكنه كان يحس أنها ستحاول انقاذه ٠٠ وكان يكره ذلك ٠٠ لأن الحياة بدونها خير منها الموت ٠٠ على أية حال ان خير ما يفعله لو أعطته الجرة هو أن يحطمها أمامها ، ويبقى ليموت معها .

وأخيرا بدا قرص الشمس الذهبى وقد لامس حافة الأفق ، وأخذ يهبط رويدا رويدا ، حتى اختفى تماما ٠٠ وقام الفتى بخطى متثاقلة واتجه الى خيمة الرجل ٠٠ ووقف كلاهما ينتظر المصير الذى ستحكم به المرأة .

وطالت وقفتهم ، والمرأة ما زالت فى خبائها ٠٠ فتقدم الاثنان ٠٠ حتى وصلا الى الخباء ، وارتفع صوتاهما يناديان المرأة ، ودفع كل منهما برأسه الى الداخل ٠٠ يقلب بصره ذات اليمين وذات اليسار ، وبدرت من الفتى صيحة عجب ، فقد كان الخباء خاليا ! .

وفى مؤخرة الخباء بدا طرف منه مرفوعا وظهرت على الأرض آثار زحف المرأة الى خارجه ٠٠ ولم يتمالك الفتى أن صاح فى دهش شديد :

- لقد قرت ! لقد أخذت هى الجرة ! لقد وهبت نفسها الحياة !

لقد سخرت منا كلينا !

ولم يبد على الرجل أى دهش . بل نظر الى الفتى فى كثير من
الازدراء ، وأجابه بهدوء ورزانة :

– عليك نفسك ! لقد كنت أعلم أنها ستفعل ما فعلت . ان المرأة
انانية . . أنها تحب نفسها أكثر مما تحب أى رجل . أما حبها لأى
رجل فيختلف بقدر ما يعطيها من المتعة . . متعة المال ، أو متعة
الجسد ، أو متعة القلب . . ان المرأة تحب نفسها أولا . . ثم تحب
من الرجال أقدرهم على ارضاء نفسها . . .

وأطرق الفتى برأسه الى الأرض . ثم تساءل بصوت خفيض
يحمل فى نبراتة الأسى والألم :

– أكنت تعلم أنها ستفر بالجرة ثم تركتها تفر . . أتركتها تتسلل
بحياتها فوق جثتينا ؟ !

– ليس فوق جثتينا . . بل تحت أقدامنا . . كما تتسلل حشرة
ضئيلة حقيرة . . اننا لن نموت عطشا ! لأن الرجال لم يذهبوا كما
ادعيت الى غير عودة . . بل سيعودون فى الصباح ، وسنبدا الصيد
من الغد .

وصمت الرجل برهة ثم أردف :

– أتراك قد عرفت المرأة ؟ أتراها تستحق أن تفتديها بحياتك كما
حاولت أن تفعل . . أتراها تستحق أن تكفر بنعمتى من أجلها ؟ أم
عرفت أنها مخلوق أنانى لا يحب سوى نفسه ؟

To: www.al-mostafa.com